

الصعيد في بوح نسائه

حكايات النساء في مجالس النساء

إهداء

إلى "نفيسة"...

الصعيدية المُحبة الضاجّة بالحياة، التي آمنتْ بالـ "الصعيد في بوح نسائه" انطلاقا من إيمانها بسطوة الحكاية، والتي كانت على مدار شهور الحبلَ السُريّ بيني وبين الصعيد، وهمزة الوصل بيني وبين نسائه ومفرداته وحكاياته الواردة في هذا الكتاب.

إلى "نفيسة" وكل نفيسة في جنوب بلادي...

إلى كل نفيسة باحت أو تكتمت...

إلى كل نفيسة صنعت الحياة صمتا أو صنعتها بصوت ملء الحياة ذاتها...

إلى كل نفيسة صنعت حكايتها بنفسها، وكل نفيسة ورثت حكايتة من أسلافها، أو ورّثت حكاياتها لنفيساتها الصغيرات من بعدها...

إلى "نفيستي" وكل النفيسات الأخريات، أهدي كل هذا البوح.

مقدمة

كثيرٌ هو ما كتب عن الصعيد، ما بين توثيق وتأريخ وتجميع للموروث و الأهازيج والأمثال والحكايات. لذا فلست أظن ما في هذا الكتاب من محتوى يزيد على كونه مربعا صغيرا يتم تظليله في محاولة لتوضيح صورة كبيرة، وإن كانت تظل منقوصة، لواحد من أقدم أقاليم الأرض وأول ما شهد منها على الحضارة الإنسانية.

الصعيد...المارد الكسلان الفقير النائم على كنوز الكنوز ونفائس النفائس منذ آلاف السنين...ذاك الذي لا يبوح بحكاياته إلا نزرا يسيرا.

العملاق المغري بالمشاكسة علّه يسمح بشيء من فك طلاسمه والإفصاح عن مخزونه من أساطير وخرافات ونذور منذورة وأولياء وصالحين ومخبولين وطامعين ومشعوذين!

مجتمع مشحون بالتعقيد الطبقي والقبلي وتضافر مكوناته الدينية والثقافية وزاخر بالموروث المخفي تحت قشرة رقيقة من التحضر والتمدين، في حين أن في جوف هذه القشرة قلبا صلبا جدا مزاجه عربي إسلامي قبطي فرعوني... قلبٌ أزعم أن المؤسسات التعليمية والتنويرية الحديثة المختلفة لم تستطع اختراقه بالفهم الكامل أو التغيير الحقيقي إلى الآن.

ربما لم يعد الصعيد شبيها بما نطالع في الدراما المصرية التي عادة ما تحيط الصعيد بأجواء أقرب إلى الأسطورية وتزج في السياق الدرامي بمفاهيم متداخلة غامضة عصية على الفهم، ناهيك عن

تعشيقة اللغة والطقوس غير المألوفة التي تجعل المتابع مشغوفا بما يرى وكأنما يشاهد عالما مسحورا تماما كعالم حكايات الليالي الألف والليلة الواحدة!

والحقيقة أني وبعد فترة من معايشة الجنوبيين وزيارات عديدة ومطولة لمدن وقرى صعيدية، أقرُّ أن الجنوب المصري يتسم بالفعل بقدر من الغموض والتعقيد، ناهيك عن حالة الممانعة الثقافية للمفاهيم والألفاظ الوافدة من الشمال، والرغبة المتأصلة لدى أبناء الصعيد في الاحتفاظ بالسمت الجنوبي المميز لهم. حتى إنّ القارئ الكريم إذا ألقى نظرة على كتاب "الناس في صعيد مصر: العادات والتقاليد" للباحثة الإنجليزية وينفريد بلاكمان، والذي كُتب في الثلث الأول من القرن العشرين، ثم عاد وقرأ "الصعيد في بوح نسائه"، سيدرك أن صعيد القرن الماضي هو ذاته صعيد هذا القرن ولكن بقليل من الرتوش!

ولعل إحدى علامات الممانعة الثقافية تلك هي الاحتفاظ باللهجة الجنوبية التي لم ينجح التلفزيون قاهري الهوى أن يعيد نحتها أو تشكيلها إلا بالقدر الذي سمح به الجنوبيون أنفسهم. الجلابية الصعيدي، العيش الشمسي، الويكا، الزنادة (أداة خشبية تستخدمها المرأة في المطبخ الصعيدي لتنعيم ثمار البامية، ويُقال إنها موروث فرعوني) بعض الطقوس المتعلقة بالميلاد والزواج والموت، هذه كلّها مفردات جنوبية أصيلة تضاف إلى اللهجة الصعيدية لتشكل مكونات الحياة في الصعيد. وكل تلك المكونات في حقيقة الأمر من الطراز المملوء بالروح والحياة وإلا لما كانت فرضت حضورها عبر القرون بكل هذا الطغيان وكأنما ترفض هذه المكونات أن تنطمس أو تموت بتقادم الزمن.

حين بدأتُ أختبر أرضية التواصل مع الصعيديات كنت أحسبُ أني سأجدهن شبيهاتي! كنت، بوعي بنت المدينة الملهية في حياة مدينتها والغافلة عن أبناء الأقاليم الواقعة على الأطراف، كنتُ أحسب أني سأجد فتيات كمثلي لهن تاريخي وتطلعاتي وهمومي وأسئلتي وقناعاتي. لكني في الحقيقة وما أن

لانَ الصمتُ وتدفقت حكايات النساء حتى بدأت أعي أن وراء المحكي مسكوت عنه كثير، يمثل في ذاته منظومة فكرية مغايرة تماما عما تشكل لدي ولدى من نشأن على مثل خلفيتي الأسرية والتعليمية من أبناء الطبقة الوسطى في المدن.

ذلك الاختلاف العميق كان تحديا في ذاته، إذ كان علي أن أكتشف كيف يمكنني أن أتلمس طريقي بحذر ودون اقتحام في اتجاه ذلك البناء العقلي والوجداني المُركّب والذي تكمن من تحت وعيه طبقات كثيرة من اللاوعي.

بعبارة أخرى كان علي أولا أن أقنعهن بالحديث إلي، وأن أعرف كيف أدير مفاتيح الحديث مع من ارتضت منهن الحكي لي. كان علي أن أقنعهن بمظهري غير المألوف لهن وبلهجتي القاهرية التي كانت تثير تعليقاتهن الضاحكة بأني قادرة تماما على استيعاب مفردات عوالمهن وأني جديرة بأن يُطلعنني على خوافي عقولهن وقلوبهن، هن اللاتي تربين غالبا على التكتم والتحفظ.

لكنهن، لدهشتي، كُنّ في الغالب مستعدات للحكي... كأنهن كُنّ ينتظرنه منذ قرون! أو هكذا كان الحال بالنسبة لبعضهن على الأقل. فقد بدت لي بعض النساء كما لو كُنّ بحاجة لأن يُسألن وأن يُسمعن، أو لأن يسترجعن مع السامع أشياء قديمة فقدنها تحت ركام الحياة اليومية الرتيبة. كل ما تطلب الأمر مني كان شيئا من المثابرة وتعقب الحديث، ومع بعض النساء كان عليّ أيضا أن أمنح كثيرا من العهود بألا أسيء استغلال حكاياتهن بأي صورة من الصور التي قد تؤذي سمعتهن أو عائلاتهن أو قبائلهن.

البعض الآخر من النساء كنّ أكثر تحفظا، فاعتبرنني أقتحم مساحات إما خاصة ومحُرّمة، أو أكثر إيلاما من أن أعيد خمش جراحها بأسئلتي، وهنا كان المحكيُ محكيا "بالقطارة" وبلهجة مقتضبة ووجه غير مُرحب..بعده كان الصمت والمغادرة!

أخريات كُنّ مستعدات جدا للبوح، شريطة ألا أوثق حكاياتهن أبدا ولا أنقلها أبدا! فقد كُنّ يحتجن فقط إلى مشاركة عابرة دون وثائق ولا مستندات! وهؤلاء، بالطبع، لن يجد القارئ حكاياتهن في هذا الكتاب ولا في سواه!

هناك من حكتْ على الهاتف دون أن تمنح وجهها وهويتها للـ "غريبة البحراوية"، وهناك من حكت عبر وسيط تثق به، كجارة أو قريبة، دون أن تحضر بنفسها إلى محكانا. وهناك من رفضت البوح نهائيا حتى قبل أن تجلس إليّ.

لكن مع كل الحكايات، وفي كل الجلسات كان الثابتُ هو دهشتي التي لازمتني من الحكاية الأولى وحتى آخر ما سمعت.

كذلك فإن من أهم "الآثار الجانبية" لتجربتي تلك كان ذلك التمدد في وعاء اللغة لدي! فقد ظللتُ خلال تجربتي أدوّن المفردات الغريبة علي أذني والتشبيهات الغريبة والجديدة مستفسرة عما وراءها من معان وإشارات خافية، وقد تكوّن لدي انطباع أن لغة الحوار الصعيدية في تراكيبها واستعاراتها وتشبيهاتها تتسم بقدر كبير من الحدة والمباشرة والقدرة على التجسيد ونقل المعاني.

المرأة الصعيدية كما رأيتُها، وعلى كل ما طالها من مظاهر مدينية، تظل بكرا في علاقتها بذاتها وبالموروث على أرضها منذ عهود الأوائل... بل وبالكون ذاته!

فالغيبيات والأطياف والأرواح والأشباح واختراق الحُجُب الكونية كلها عناصر قوية الحضور في البيئة الجنوبية، وغالبا ما كنتُ أجد أن التفسير الماورائي لفهم الأمور أقرب إلى ذهن المرأة في الصعيد من التفسيرات التي تبدو أبسط وأكثر منطقية وبداهة بالنسبة لي، بل إني لكثرة ما لملمت حكايات ذات طابع غيبي ماوراء-طبيعي في الصعيد، أكادُ أجزمُ أنه ما من بيت جنوبي يخلو من

حكاية أبطالها كائنات نصف مرئية شبه مسموعة أو على الأقل أشخاص طبيعيون بقدرات روحية غير طبيعية!

لا تحسب المرأة الصعيدية نفسها (كما رأيتها وسمعتها) بطلة خارقة ولا أقوى من كل تلك القوى الكونية الخفية، كما أنها لا تجهد عقلها كثيرا في فك شفرات الكون وقواه الخفية، لكنها فيما بدت لي غير نافدة الحيلة في درء أي من القوى الشريرة التي قد تترصد بعالمها الصغير!

فهناك دوما طقسٌ ما تعرفه المرأة الصعيدية وتعتقد أنها قادرةٌ بممارسته على تطويع عناصر الكون أو دفع قوى السحر والشر الخفية أو تغيير القدَر أو على الأقل كشف المحجوب منه للتحسب لما سيأتيس.هناك دوما قراءة أو طلاسم أو تمتمات قادرة على جلب البركات ورد الحسد، وإذا ما لزم الأمر فهناك أولئك "المبروكون" القادرون على مطالعة النفوس وما تحيك به الصدور ومطالعة المختبئ من الأقدار والقادرون أيضا بقراءاتهم وأعمالهم على تأليف القلوب أو تفريقها!

المهم أن المرأة الصعيدية لا تقبل أن تنهزم، وهي الواعية بنفسها كمكوّن فاعل من مكونات الكون الفسيح الزاخر بالطاقة والكائنات والمكونات.

كذلك وفي رحلتي داخل الحكاية النسائية الصعيدية كنتُ أرى نفسي إزاء امرأة معتدة جدا بمعارفها التي تجيد تمريرها لأبنائها فتبني رجالا بـ "شوارب" كثة يعرفون كيف يُخضعون نساءهم في المستقبل! في حين أنها، بالتوازي وسرا، تربي بناتها على ألا يخضعن لرجالهن إلا بما يسمح العُرف وتقضي الأصول، وتدربهن على التسرُّب إلى دواخل هؤلاء الرجال ومعرفة متى وكيف يجب عليهن التدخل بالفعل كي يسقن مصائر هؤلاء الرجال ومعها مصائر بيوتهن وأبنائهن!

حتى في حكايات الثأر التي استمعت لشيء منها، كان في بعضها على الأقل الحضور النسائي مرصودا وبارزا...صحيحٌ أنها في بعض الحالات قد تكون غير فاعلة في المشهد الثأري، بل مجرد

فرد في قبيلة أو عائلة يسري عليها ما يسري على سواها من أبناء القبيلة أو العائلة، لكنها في حالات أخرى تكون محركا للثأر وحاضنة ومورّثة له من جيل إلى جيل ومؤججة لنيرانه، ولو على الأقل بالـ "عِديد" ورثاء قتيل العائلة. بل، وكما ورد في إحدى الحكايات بهذا الكتاب، قد تكون منفذة الثأر بيديها كذلك.

وربما، على النقيض، تلعب المرأة دور "نازع الفتيل" ومحرك المصالحة الثأرية، كحكاية الست "مزيونة" التي حكاها لي حفيدها (وهو من الرجال الجنوبيين القلائل الذين جلسوا لمحاكاتي).

وبحسب الحفيد، وهو الآن رجل أربعيني متعلم ومعتد بنفسه وانتمائه، يُروى أنه في بدايات القرن الماضي، وقفت قبيلتان تنتميان لإحدى قرى صعيد مصر متحفزتين للتناحر معتزمتين إسالة بحور من الدماء، بعد أن صفع أحد أبناء قبيلة منهما ابنا للقبيلة الأخرى صفعةً مهينة على وجهه!

وبينما يقف الرجال ذوو الشوارب حاملو السلاح على الجانبين متوترين كأوتار مشدودة، خرجتْ امرأةٌ ضئيلة البنية من قلب أحد الحشدين، سارت في صمت إلى حيث يصطف الحشد المقابل، مدت ذراعها على طوله وعزمه لتصفع أحد كبار الواقفين في مقدمة الصفوف!

"خلاص...فضينا! خبطتونا كف وخبطناكم كف...كل واحد يروح يشوف مصالحه عاد!"

وانفض الجمعان! هكذا نزعت السيدة "مزيونة" فتيل الأزمة وحفظت دماء أبناء قبيلتها والقبيلة المناوئة من انهدار الدم الذي كان يعلم الله وحده متى وكيف ينقضي. وهكذا ظلت أيقونة في قريتها يتوراث الأبناء والأحفاد حكايتها.

لكن، وعلى حدة وعيها وسطوة حضورها، تظل المرأة الصعيدية، كما لمستُ في حكايات من حكين، حبيسة الفقر الغالب على بلادهن، مدفوعة لتدبير أمورهن بأقل الموارد المتاحة، ومحبوسة

داخل تكييفات ومعايير صارمة لا تكاد تتزحزح منذ قرون. معايير تجعل الخصوبة والإنجاب وأحدة من أكبر همومهن، لأن المرأة الولود ليست كالعاقر في عيون المجتمع، كما تجعل الحمل بذكر ليس كالحمل بأنثى، وتجعل التعلّم واكتشاف الذات والبحث عن فرص التطور الشخصي والتميز الفردي والسفر لاستكشاف الحياة كلها أمورا غير واردة في حسابات تلك المرأة.

لقد حاولتُ بينما أجمع الحكايات الواردة في هذا الكتاب، وهي، وإن كانت عميقة وصادقة وبها الكثير من الأصالة والفرادة ليست كافية عددا وبالتالي غير مُمثلة لنساء الصعيد، حاولتُ أن أقدم بعضا من ملامح الصعيد كما تراه نساء الصعيد، وبعضا من ملامح نساء الصعيد أنفسهن...ما يتحاكين به في جلساتهن الخاصة، ما يعتقدن في وجوده وإن غاب عن الأعين، ما يُضحكهن وما يُثقل كواهلهن، ما فقدن وما أدركن وما يلهثن لتحصيله...والحقيقة أني لم أتدخل في الحكايات الواردة في هذا الكتاب إلا بقدر التنسيق وإعادة الصياغة، بل إن بعض المقاطع واردة بلهجتها الجنوبية دون تنقيح مني ولا تدخل. وفي الغالب فإن تعليقاتي في ثنايا الحكايات لا تتعدى وصف الراوية أو إدخال العبارات التي أعيد بها صياغة الحكاية كما فهمتها أواستشعرتها أنا.

وأخيرا، فإني قد قسّمت المادة التي جمعتها إلى قسمين: الأول هو جزء **"حكاياتُ النساء في مجالس النساء"** وهو الجزء الذي نسّقتُ فيه المادةُ التي تحكي فيها الفتيات والنساء عن انشغالاتهن الشخصية العادية، عن أحلامهن وأحزانهن وعن الحب والزواج والإنجاب والطلاق والفقر..وكأنما بهذا الجزء ندلف إلى مجلس نسائي حميم وإن كان تقليديا لا شطط فيه ولا غرائبيات!

أما الجزء الثاني **"حكايات الصعيد التي لا يملكها أحد"**، ففيه نسقتُ الحكايات التي تتعلق بوعي المرأة الصعيدية بموروثها من عادات وطقوس مثل عادات الطهور والزواج والموت وأسرار الخصوبة والعلاج بالأعشاب وحكايات العوالم غير المرئية، وغيرها من الحكايات ذات الطابع

الاجتماعي والتي لا تخلو من مسحة ميتافيزيقية يبدو لي أنها تميز الإدراك الصعيدي للأشياء عموما.

وفي نهاية هذا التقديم الطويل، يشغلني أكثر ما يشغلني الخوف على ما يظل في الصعيد من حكايات قديمة توشك على الاندثار مع جيل يقف على أعتاب ما بعد الحياة. لا يزال في مدن الصعيد وقراه المنسية الكثير من الأمثال الشعبية والعدودات الحزينة وأهازيج الزواج و الحجيج وطقوس المصاهرة والمعتقدات المتعلقة بالأسحار وفكها وبأسرار الحياة والموت وبينهما الزواج والتناسل، وكلّها تفاصيل تملكها عجائز الصعيد أكثر من سواهن...وكلّها حكايات جديرة حقا بأن يجتهد المهتمون قدر استطاعتهم للتوثيق وحماية ذلك الكنز الجنوبي المهجور من الانطماس أبدا وبغير رجعة.

لم يبق عند هذه النقطة وقبل أن أترك نساء الصعيد يبحن مباشرة للقارئ إلا أن أنوّه أن الحكايات الواردة في هذا الكتاب قد تم جمعها من قرى مختلفة في أسوان و سوهاج وقنا، وأن أسماء صاحبات الحَكَايا الواردة مُستعارة جميعا لحفظ خصوصيتهن في محيطهن الاجتماعي.

الجزء الأول

حكاياتُ النساء في مجالسِ النساء

حكاية "ورد"...ذات الجمال "الشريهاني"!

يلفتك في "ورد" ذاك الشبه المتواري بينها وبين فراشة الفن المصري، شريهان...العينان، الوجنتان، رسم الشفتين البارزتين المحددتين، وحين يضاف إلى الخليط لهجتها الصعيدية فإنها تستدعي إلى ذهنك شريهان في أحد فيلميها "الطوق والإسورة" أو "عرق البلح"، بجمالها البدائي وأنوثتها المُستنفَرة.

وبرغم سنوات عمرها التي لا تتعدى التسعة عشرة، فإن شيئا فيها ما يوحي للناظر بأنها امرأة مكتملة النضوج والأنوثة محتكمة الخبرة، تماما كمعظم فتيات الجنوب وكأن شيئا ما في الجنوب وحياة الجنوب يُحرق شباب هؤلاء النساء الصغيرات! ولكأن غير الرجال في الجنوب نساءٌ فحسب، لا أطفال إناث ولا مراهقات!

حين همت "ورد" بالبوح بحكايتها طلبت من أمها أن تغادر المكان، كي يتدفق البوح دون حرج ولا مساءلة فغادرت الأم نصف راضية نصف منزعجة، وإن كانت تعلم في قرارة نفسها أن خيوط حياة الابنة بالكامل معلقة بأصابعها تماما كما كانت خيوط حياتها بالكامل معلقة بأصابع أمها...ومنذ متى تخرج الصعيدية بنت الأصول عن طوع أمها؟!

لم تعش "ورد" حياة الأسرة بصورتها المألوفة، بين الأم والأب والإخوة، فقد وعت على الدنيا لتجد نفسها فردا في أسرة عمادها الخال ومظلتها الجدة وراعيتها الأم...مشهد لا أب فيه ولا أشقاء.

" أنا معرفش حاجة عن أبويا نهائي...معرفش غير حكايات قديمة مُرّة محنضَلة من قبل ما يطلق أمي...حتى مصاريف نفقتي اللي حكم بيها القاضي ماملتزمش بيها أبويا.. والمرة الوحيدة اللي رحت أشوفه فيها كتلني (ضربني).أسمع ان لي اخوات من أبويا بس ماعرفاش عنهم حاجة".

صعيدية...وأفتخر!

تعرف "ورد" ذات الوعي الحاد والذكاء الفطري لأي قبيلة جنوبية تنتمي جذورها، فالجدات لا يتهاونّ في تلقين هذه الخريطة القبلية للصغار، كما تعرف كذلك أنها منحدرة من أسرة فقيرة لم تعتد الثراء إلا مؤخرا، فقد كان جدها موظفا بسيطا يعول أسرة كبيرة جدا يقدر بالكاد على سد أفواه أفرادها. مرت السنون على البيت الكبير وتيسر حال العائلة فأصبحت "أغنى ناس في البلد" على حد تعبير "ورد"، وغدت من قليلات في قريتها ممن أتيح لهن السفر "بحري" إلى القاهرة والإسكندرية ومدن البحر الأحمر الساحلية الساحرة.

"لكن أنا باريد (أحب) حياة الصعيد واريد لهجتي ولهجة ناسي...أنا صعيدية يا ناس معايزاش أتكلم كيفكم إلا وقت الدلع (قالتها "جلع" بالجيم الجنوبية المُعطشة وهي تضحك)...أتكلم بحراوي عشان إيه دي تبقى قلة أصل! مش عشان طلعت ولبست الغالي أغير أصلي...مش أنا" !

تطمح "ورد" كثيرا في استكمال تعليمها، على الرغم من الحالة المزرية التي تجد عليها مدرستها الجنوبية الفقيرة في منشآتها وفيما تمرره لطلابها من معارف ومهارات، وعلى الرغم من أن "نديداتها" جميعا تزوجن منذ كن في المرحلة الإعدادية!

لكن لأسباب عديدة من بينها مرارة حكاية أمها وأبيها تهاب "ورد" فكرة الزواج، خشية الألم والفشل، إحساس كبر بداخلها بعد أن فشلت الخالة أيضا في حياتها الزوجية فخرجت منها بمرارات وانكسارات كثيرة لتنضم إلى أمها والجدة في "عربة السيدات" المنتظرات!

"التعليم أهم من الجواز عندي، وأنا بت رجيلة و أقدر أحافظ على نفسي كويس من غير ما يكون في ايدي دبلة راجل وماحدش يقدر يقول عليا نص كلمة...نديداتي كلاتهم اتجوزوا لأن البت هنا بتتجوز في الإعدادي أو الثانوي بكتيره...هي دي السترة في بلدنا، الجواز البدري بدري عشان ماحدش يقول كلمة كدة ولا كدة عالبت لما تبقى في بيت راجلها..والبت اللي يتأخر جوازها في بلدنا يقولولا لزماً سبب تأخيرها انها بطالة...بس الجواز البدري كمان بيقفل الحياة عرفتي كِيف؟ يعني بيحرق شباب الواحدة منينا ومايخليهاش تحصل تعيش حياتها...أنا أحب ألبس وأسافر وأتعلم"

لكن "ورد" تدرك كذلك أن لحريتها سقفا لا يمكن تخطيه، فهي وإن تحررت بعض الشيء في ملبسها وارتدت الجينز بديلا عن العباءة السوداء، فهي لا تجروء على التجول في البلد بشعرها مكشوفا وبالقطع فإنها لا تجازف بإنشاء حساب باسمها الحقيقي على فيسبوك! ولأن أبناء البلد ورجال العائلة غالبا ما ينظرون لمستخدمات فيسبوك باعتبارهن "بنات خسرانة وقلالات أدب" فإن التخفي وراء اسم مستعار وصورة لفنانة مشهورة، هو أسلم وسيلة للاستفادة بخدمات مواقع التواصل الاجتماعي دون تعريض سمعة الفتاة للقيل والقال!

وعلى الرغم من فترة الفقر الشديد التي مرت بها عائلة "ورد" فإنها لم تفكر في العمل كفتيات كثيرات تعرفهن في محيطها، فالعمل، خاصة من ذلك الطراز البسيط والمتاح في قرى الصعيد، يضع الفتاة في مصاف المعوزات من غير سليلات القبائل الكبيرة أوالبيوت ذات الاسم والتاريخ.

"أعرف بنات كتير من بلدنا بيشتغلوا، مثلا تبيع خضار في محل ولا تفرش فرشة بسكوت ونوجة عشان تساعد ناسها في جهازها...يعني أنا صاحبتي مثلا جهزت نفسها بنفسها من البيع في محل بقالة وجابت أحسن جهاز كمان لأن أبوها راجل كفيف ومكانش قادر على جهازها...بس أنا ماينفعش أشتغل...تبقى عيبة في حق خالي...وفي حق جدي الكبير وسيرته المحفوظة في البلد من جدود لجدود...أصل أنا جدي الفوقاني خالص كان عنده أراضي وطين وسجر (شجر) وكان راجل سخي الله يرحمه...وكان يجمع المساليب والحلب (الغجر) ونسوانهم في أرضه ويقولهم كلوا واستروا حريمكم مابدالكم في أرضي...كدة من غير حساب...وكان يحميهم إكمن الناس المأصلة هنا بيبصوا يعني للمساليب بصة مش كَد كدة...ومعروف إن نسوان الحلب يعني لامؤاخذة بيتكلموا بالعين والحاجب...يعني كانوا يقولوا عليهم غوازي...فكان يطلع واد مأصل من بيت كبير بس خسران يسكر ولا يستعطى زفت على راسه وياجي يهجم على بنات الحلب، فكان جدي اللي بيحميهم"

هكذا تحكي "ورد" عن جدها السخي بإكبار يشي بأن حكاية الرجل "حامي المساليب والحلب" ستظل إحدى مرويات هذه العائلة لأجيال...تماما كأسطورة لا تموت، وإلا فكيف تنشأ الأساطير وكيف تعيش لعهود؟!

الراجل ميكسروش غير البت... وميرفعش راسه غير سترة البت!

تعرف "ورد" الكثير من حكايات الفتيات في قريتها والقرى والبنادر المجاورة، كحكاية جارتها المسلمة التي عشقت شابا قبطيا ثم فرت معه إلى الإسكندرية، وكلما استقصت الفتاة العاشقة الأجواء في بلادها علمت أن رجال بيتها في انتظار عودتها على أحر من الجمر كي يذبحوها ويمحوا عارهم، فتتراجع عن العودة حتى جاء اليوم الذي كفت فيه عن الاستقصاء وذابت في حياتها الجديدة في بحري.

ولا تنسى "ورد" حكاية "البت اللي خطفوها في بلد جنبينا"، وكيف أنها، برغم أنها كانت هي الضحية، جلبت العار على بيتها!

"كيف يخطُفوها من على خشم باب البيت؟! دة مصيبة كَبيرة وعار على شنباتهم...أفْكـَر (أتذكر) أياميها كان رجالة قبيلتها والكل كليلة في بلدهم مابيناموش، وكانوا واقفين ليل نهار بالرشاش داير ما يدور البلد...ولما ما ظهرش أثر للبت، راحوا هجموا عالجبل، وفي الآخر البت رجعتلهم بس بكيف اللي كان خاطفها! رماها لهم متكتفة ومتكممة عالطريق الصحراوي...والبلد قالت كلام كتير بقى، إلى قال كانت مخطوفة بالغلط، والنية كانت على واحدة تانية، واللي قالت كانت مخطوفة تخليص تار قديم، واللي قالك ماكنتش مخطوفة أساسا لأن البت رجعت خلقاتها (ملابسها) نضيفة فقالوا كانت هاجة (هربانة) بكيفها...نهايته...ناسها بعد ما رجعوها راحوا خطفوا قصادها واحدة من بيت اللي كان خاطفها! عشان بس يقدروا يقيموا راسهم في البلد، والا كانوا يعيشوا مِتـَخْيين (محنيو الرؤوس) كيه الحريم ! أصل الراجل ما تكسروش غير البت وميرفعش راسه غير سترة البت!"

أما الحكاية الأقرب لمحيطها ووجدانها فهي حكاية صديقة طفولتها الجميلة ذات الحُسن الطفولي والتي زوجوها غصبا لابن خالتها فكانت كلما رأته تصرخ صراخا هستيريا قبل أن تفقد وعيها

طويلا...حتى في ليلة زفافها جلست في "الكوشة" واجمة شاردة لا تشارك الأهل فرحتهم بها، وإذا بها فجأة تنتابها حالة من الهياج جعلتها تصرخ وتمزق ثوب زفافها عن جسدها الصغير البض وتبعثر شعرها ماسحة مساحيق التجميل عن وجهها حتى غدت تبدو كمصاصة دماء خرافية! ظلت الفتاة تأتي بهذه الأفاعيل الهستيرية حتى فقدت الوعي فحملها إخوتها على أكتافهم كما في الجنازات ومشوا بها مشية حاملي النعوش يحيطهم وجوم الهلع.

"ناسها لفوا بيها عالمشايخ والآخر راحوا لشيخ كبير قال عليها بسم الله الرحمن الرحيم جن عاشقها...و دوك (الآن) هي في بيت ناسها واخواتها نازلين كتل وضرب فيها عشان فضحتهم وسيرتها على كل لسان"!

وتستكمل "ورد" حديثها بنبرة الشارح فتقول إن الرجل هنا هو "الحيطة اللي تنسند عليها المَرَة" وأن المرأة التي تعيش بلا زوج سواء لأن قطار الزواج فاتها أو لأنها مطلقة تغدو مع الوقت إلى حكاية في مجالس النميمة الحريمي....حتى الأرملة غالبا ما تُزوَج برضاها أو بغيره لأخي زوجها المتوفى على سبيل السترة.

"لازم المَرَة تكون قوية عشان تقدر تعيش لوحدها في بلدنا، واحنا معندناش نسوان قواي...عندينا نسوان جريمة (مجرمة) لسانها متبري منها ودي مش قوة...دي قلة ربابة وهمجية...انما بنات الأصول اللي راحوا مدارس مايقدروش يعيشوا من غير راجل والا يجيبوا لنفسهم ولناسهم الكلام".

<u>السوريات...حلم الرجل الصعيدي!</u>

تتابع "ورد" ما يجري في بلادها، تتسمع نشرات الأخبار أحيانا، أو تطالع بعض "منشورات الفيس" عن الأحداث السياسية في مصر والمنطقة، لذا فهي تعرف تماما أن "حربا" ما قد ضربت سوريا، وأن تلك الحرب التي لا تعلم "ورد" الكثير عن أطرافها وتفاصيلها قد أدت بأسر سورية كثير لأن تنزح إلى الصعيد...ترى "ورد" نساء السوريين وهن يرتدن الأسواق أو أحيانا وهن يطرقن أبواب البيوت طالبات المساعدات المالية كي تستكمل أقدارهن التغريبة إلى نهايتها، وتقول إن حكاياتهن جميعا "تقطع القلب القاسي" فهن في عينيها مكسورات مقهورات لا يقدرن على شيء، عنوان حديثهن دوما الافتقاد والفقر...لكن هذا لا يمنع أنهن جميلات! فهن بيضاوات ممشوقات، بخلاف البنت الصعيدية ذات البشرة الداكنة والقوام الممتلئ!

"الرجالة هنا لما يحبوا يحارنوا (يشاكسوا) حريمهم يقولولهم: والله يا مَرَة لو فتحتي خشمك لأتجوز عليكي واحدة سورية!"

تقولها "ورد" ضاحكة، نافية أن تكون شهدت حالات نفذ فيها الرجل تهديدا من ذلك النوع، فالرجال هنا "**كبيرهم طق الحنك"!** ربما يستغل البعض ظروف العائلات السورية لتحقيق كسب مالي، وفقا لـ "ورد"، لكن ليس إلى حد المتاجرة في نسائهم كما يشاع أنه يحدث في المدن المصرية الكبيرة... ففي النهاية "**الصعايدة عرب ويفهموا في الأصول"** ولا يمكن أن يستغلوا محنة كهذه في المعشقة وأمور الزواج.

<u>تغسيل الموتى وحكايات الجنيات الخضراوات... إنما هي من مكونات الحياة!</u>

"ورد"، وبرغم كونها تتحدث كالنساء العليمات بأسرار الحياة، مستعيرة همومهن وألفاظهن، هي في الحقيقة الطفلة المدللة والحفيدة الأقرب لجدتها لأمها...ولأنها كذلك، فإن "ورد" التي تبدي التذمر من تحكمات الجدة ومن تدخلاتها الكثيرة في حياتها، فإنها لطالما تعلقت بأذيال جدتها وصحبتها إلى كل مكان، حتى إلى "تغسيل الموتى"!

"أنا حضرت مع جدتي تغسيل واحدة جارتنا وكان عمري وقتها 15 سنة...شفت جدتي وهي بتغسل الست الكبيرة واتشهدت عليها، وشفت الجدة وهي بتكفنها وطلبت من جدتي من وقتها انها تعلمني كل حاجة عن تغسيل الموتى..لأ ماباخافش...أنا حتى ماباخافش من الجبانة لكني أمي بتخاف عليا!"

لكن "ورد" التي لا تخشى الموت وتغسيل الموتى وتكفينهم، تهتز قليلا حين تسمع من جدتها حكاية الجنية الخضراء التي عشقت شابا من أبناء قرية مجاورة، والذي كان ابن عمدة قريته وبكريه !

"الحكاية دي حقيقية...الواد دة كان ابن عمدة بلده وأبوه كان واهبه لبت من أهل البلد من هم وصغيرين...واهبه يعني متفوق (متفق) مع ناس البت على ان الواد للبت والبت للواد...بس البت كانت عايشة بقالها سنين في اسكندرية...وكانت جل الله فيما خلق...جمال إيه وشعر إيه...الغرض البت جات على بلدنا وتم الفرح في سبع ليالي زي عوايد بلدنا...خمس ليالي طبل وزمر وموالد وليلة حنة وليلة عُرس...الواد بعد ما دخل على عروسته يبص في صورتها في المراية وهي نايمة جاره يلاقيها بتتحول لهيئة غير هيئتها...يدقق فيها ترجع زي صورتها الجميلة، فيقول في نفسه يبقى أنا عَمْ باهدرب (أخرف) ...لحد ما جا في يوم ولبد لمرته فوق سطح بيتهم يراقبها من غير ما توعاله، لقاها رايحة جاية في البيت على صورة بشعة...كأنها مش إنسية...خضرا وبديل...نزل وخبط على باب بيته فتحتله وهي آية في الجمال زي عادتها،

أخدها من إيدها وقالها بينا نقرا سوى قرآن بصوت عالي! مما اتجوزنا ما قريناش قرآن سوي...دخلت معاه وابتدا يقرا سورة "يس"...هو يقرا وهي تتشنج وتتغول لحد ما ظهرت على حقيقتها: خضرا ولها قرون وديل ومخالب! لما وقف الجدع تلاوة ورجعت لصورتها الآدمية سألها: انتي مين؟ قال له أنا بنت الجن الأخضر...حبيتك وكنت عارفة ان ناسك وهبوك لحبيبتك فأخدت مكانها عشان أكون جنبك"

وانتهت الحكاية كما قالت "ورد" نقلا عن الجدة بأن الزوج الشاب قرأ آية الكرسي فأحرق الجنية العاشقة!

إلى هنا صمتت "ورد" مكتفية بمتابعة تأثير حديثها على وجهي!

حكاية السيدة "راء": حتى جنِّيات الصعيد جدعان!

السيدة "راء" امرأة ثلاثينية طلقة الوجه وبيضاء البشرة بخلاف أغلب المحيطات بها. تحكي "راء" بعينيها الضيقتين المبتسمتين دون حسابات كثيرة، مفاخرة بأنها آخر عنقود أخواتها وأكثر من جالس أمها المسنة وبالتالي أكثر من أنصت لحكاياتها والتقط ألفاظها العتيقة التي لم تعد "النديدات" يستخدمنها.

تحكي السيدة "راء" (مطلقة ولديها ابنة مراهقة) كيف أن خطتها الأولى كانت استكمال تعليمها الفني تمهيدا لأن تنفذ مشروع الأحلام: مشغل خياطة. لكن أباها المتوفى والذي كان موظفا بسيطا يعول أحد عشر ابنا من زوجتين ، لم يكن يملك ترف إرسال الأبناء والبنات جميعا إلى مؤسسات التعليم، فقرر أن يستأثر الرجال بالتعليم بينما تنتظر الفتيات فرسان الأحلام...شئن أم أبين!

"وضاع حلمي الأول... حاربت أبويا (قاطعته) لمدة أسبوعين، يكلمني ما ردش عليه الكلام، لحد ما اضطر يسحب ملفي ويبعتني مدرسة التجارة"

وعن حلمها الثاني الذي تلته في صلواتها السرية كثيرا كان أن تتزوج من رجل اسمه أحمد! لا يهم وصفه ولا سمته ولا طبعه، يكفيها أن يكون اسمه أحمد! تقولها "راء" بينما يترجرج جسدها من الضحك وتضيف **"يمكن يكون تأثير الأفلام العربي القديمة اللي فسدت علينا عقولنا وحياتنا!"**

وتحقق حلمها وجاءها "أحمدها" المُرتجى بعد أن كان عليها أن تنتظر زواج الأخت الكبرى أولا، فلا يصح في عرف عائلات الصعيد تزويج الصغرى قبل من تكبرها حتى وإن اضطرت للانتظار إلى جوار أختها الكبرى إلى غير منتهى!

كانت دون العشرين حين تزوجت، العريس الثري كان يعمل بالسعودية (ككثير من شباب الصعيد الطامحين إلى الاستقرار المادي)،عاد في إجازة لمدة أيام كان عليه خلالها أن يختار عروسا وأن يخطبها ويتزوجها قبل انتهاء الإجازة!

"اتخطبت لمدة تلات أيام بس! يوم قراية فاتحة، يوم خطوبة ويوم حنة! بعدين الدخلة...اتجوزنا وكان عليا أروح أعيش معاه بحري (القاهرة)...كنت خايفة قوي قوي من روحة مصر دية...وهناك ابتدت غربتي وابتدت مشاكلنا وحنيت لأمي وعيشتي في الصعيد...فضلنا على دة الحال سنين، ياجي أجازات بس، ورجع يغيب سنين في السعودية ولا يسأل ولا أعرف عنه حاجة ولا يعرف عني حاجة...بس عادي كل النسوان هنا على دة الحال...لما خلفت بتي الوحيدة اتشاكلنا شكلة كبيرة عشان كان عايز الواد، ومن ساعة ما عرف ان خلفتي جات بت ما عادش لا يسأل عليا ولا عليها ولا يبعت حتى مصاريف...هو أصلا كان تعيس لأن بيتهم كان مشتت وأمه وأبوه منفصلين وهو عيل صغير، وكنت أنا وبتي ضحية عُقده الكتير"

منذ ذلك الحين استقلت السيدة "راء" نفسيا وعاطفيا عن ذلك الزوج الغائب الحاضر، واعتمدت على عائلتها لتنشئة ابنتها، ذلك أن أبا "راء" ترك وصية قبل وفاته شدد فيها على ألا تعمل إحدى بناته مهما تكن الظروف، لأن عمل الفتيات مَعْيرة للعائلات كما كان يعتقد...واعتبرت "راء" أن حسن تنشئة ابنتها ونجاحها في دراستها ونظافة سمعتها وسط البنات هو تحديها الشخصي، فعاهدت نفسها على ألا يأتي يوم تُعير فيه ابنتها بأنها "تربية مَرة".

"هربت من جوزي...خليته خرج من بيتنا في القاهرة وأخدت بتي على كتفي وهربت عالصعيد...شرطه عشان يطلقني كان اني أدفع له مبلغ كبير وأتنازل عن كل حقوقي وحقوق بتي حتي النفقة، وتم الطلاق...كنت مستعدة أتنازل عن أي حاجة عشان حريتي وبتي...انا اتجوزت وخلفت واتطلقت وعمري 21 سنة...يعني ابتديت وانتهيت قبل البنات عندكو بحري ما بتبدأ الحياة"

عن الجنية الجدعة

وعن نساء الصعيد عموما وتكاتفهن في الصعاب تقول السيدة "راء" إن النساء هنا يعرفن كيف يدرن بيوتهن بأقل القليل من الزاد والدخل، فدوما سفراتهن عامرة حتى وإن وصلت الحياة حد الكفاف، إذ يكفي أن "تميّل" إحدى النساء على جارتها هذه أو تلك لتجد عندها من الخير ما يسد الرمق ويستر احتياج البيت.

"النسوان هنا بيوقفوا جنب بعض...يسلفوا بعض ويتعاونوا خصوصا في الأحداث الكبيرة...يعني لو فيه تار (ثأر) مثلا تلاقي حريم الناحية كلهم يتجمعوا في البيت اللي له تار يوماتي يروحوا ياخدوا بخاطر اصحاب الدم، لحد ما ربك يرفع ويتاخد التار أو يتم الصلح...ولو فيه وفاة، نسوان البلد كلهم يروحوا يواسوا، وكله يعيش مصيبة الموت ولا َمرَة في البلد تطلع الشارع لابسة ملون، كله في العبايات السودا لحد الأربعين، وفي الفرحات بقى كله يزغرط ويغني أغاني الفرحات ويرقص ونروح بيت العروسة في النهارية نطبخ ونصنع (نخبز) ...مافيش مطبخ ولا فرن في بيت واحدة منينا ما يشتغلش في الفرحات...كله شايل صواني وكله بيصنع"

ولأن البلاد ضنينة شحيحة في رزقها وخيرها على أبنائها، فإن النساء غالبا ما يجتهدن كي يساندن أزواجهن على مواجهة الحياة بفقرها وبطالتها وضيق زادها، فمنهن من تربي الدواجن لتبيعها ومنهن من تربي الماشية لتتاجر في ألبانها، ومنهن من تصنع الفطير للبيوت الأكثر ترفا، وأخيرا منهن من تعمل بنقش الحناء للعرائس...والأخيرة غالبا ما ينبذها رجال عائلتها لأنهم يجدون في مهنتها مجلبة للعار وسوء الصيت!

"مش بس كدة..دة حتى الجنية اللي في البلد اللي جنبينا بتواجب (تؤدي الواجبات الاجتماعية)...أنا أحكيلك حكايتها، الجنية دي مستوطنة البلد من آلاف السنين...جا واحد من مشايخ الطُرُق الصوفية هو وجماعته يمدحوا تحت الشجرة اللي ساكناها الجنية، قام شافها,,,قالها غادري بسلام، قالت الجنية ماليش وطن تاني أنا وعيالي الجنون هنا من قبل القرية دي ما تتوجد، قال خلاص آخد عهدك لا تؤذي أهل البلد ولا يؤذوكي..وأخدت الجنية العهد...ومن يومها والجنية ساكنة في البلد، وكل الناس عارفة حكايتها، في أول كل سنة يا تصرخ فنعرف إن فيه حالة موت شنيعة حتحصل في البلد خلال السنة، يا إما تزغرط فنعرف ان السنة دي فيها فرحات كتير...وهي الحق يتقال ما بتأذيش حد في البلد...بالعكس...بنسمع انها بتجيب دقيق وغلة للنسوان الجيعانة (المعدمة)"

والسيدة "راء" معجبة أشد الإعجاب بنموذج أمها، المرأة الصلبة القوية ذات الكلمة المسموعة في محيطها، والتي لا تقف خدماتها عند حد المجاملات في الأحداث الكبرى، بل إنها تتقدم في حالات الوفاة لتتطوع بتغسيل النساء المتوفيات، وتكفينهن، وفي حالات الولادة تقف بالمتابعة والإرشاد حتى تطمئن على سلامة الأم والمولود لحين تصل القابلة أو، كما حدث في مرات، تتلقف المولود بين ذراعيها!

"أمي عاشت عيشة صعيبة وشافت شقا كتير، بس أمي ست رجيلة (من الرجولة) توقف زي الراجل وقفات شديدة...هي صُح بتنفعل وطبعها صعيب وعنيدة، انما دة اللي ساعدها ما تنكسرش للظروف الصعبة...حتى لما ابويا اتجوز عليها مَرَة تانية ما تهزتش...وقفت وقومت بيتها وعيالها ووقفت جنب جوزها لحد ما ربنا افتكره"

وتقر "راء" لنساء الصعيد بالقوة عموما، وبأنهن قد يكن أحيانا مُحركا للشرور الذي يجري غالبا على أيدي رجال. حكت "راء" عن جارتها التي كان لديها من الأبناء ثلاثة، كان أحدهم مزواجا و"نسوانجيا" يعاقر المسكرات والمخدرات، يهمل أبناءه ويلهث و"راء" "كيفه"... قررت أمه ذات يوم أنه لابد من ردعه، فوسوست لأخويه بضرورة تأديبه وتلقينه درس العمر، وأشارت عليهما بربطه بالأحبال واحتجازه في بيتها وضربه ضربا ينسيه كل نزواته**!** أطاع الولدان أمهما طاعة عمياء، أودت في النهاية بحياة أخيهما الثالث أثناء "التأديب"**!**

"وهم بيضربوه هددوه انهم حيرموه في البحر (النيل)، قالهم لا والنبي أنا باخاف من موت الغرق، ارموني تحت قطر بس بلاش البحر...فضلوا يضربوا فيه لحد ما خلص يا ولداه في إيديهم...المرة طبعا ندمت ندم عمرها على قسوتها على ضناها، وعشان ربنا يعاقبها كمان وكمان بقى من يوم ما اتقتل الجدع تسمع المَرَة صوت ولدها في الليالي يقول في حوش البيت: عطشاان يامة عطشاان...عفريته مازم الدار ..اللهم اكفينا الشر ".

أما الرجل الصعيدي كما تراه "راء" فهو "عامل راجل من غير ما يعرف معنى الرجولة"**!** فهو متسلط مزهو بقوته الجسدية في مواجهة نساء بيته غالبا، يقهره الفقر فيقهر نساءه، ولا تظهر رجولته المزعومة تلك إلا على حريمه أو في "قعدات الصلح" حيث "الجخجخة والفشخرة الكدابة"**!**

تؤمن "راء" أنها قادرة تماما على العيش من دون رجل...لكنها تقر بأنها عاجزة عن العيش بغير حب..لذا فإن كان من حلم لها في حياتها القاسية تلك، فهو أن تحب...تماما كما في الأفلام المصرية "الابيض واسود".

حكاية "نـهر": جدتي حميدة...المتعطرة دائما وأبدا!

لم تشأ "نهر" أن تكون بطلة حكايتها! فهي لا ترى في نفسها ولا في حياتها ما يستحق الرواية ولا بطولة الحكايات، لكن إن كان ولابد من الحكي فلتكن بطلة حكايتها امرأة تليق ببطولة الحكايات...امرأة من طراز جدتها "حميدة"!

"جدتي حميدة لما كانت تنزل من العزبة للبلد تحت كانت تهز البلد هزان! كان حُسنها يهيج أجدع شنب! الله يرحمها... كانت حَنينة وجميلة ومتفيّحة (متعطرة) على طول"

تصف "نهر"، الشابة ممتلئة القوام المتدفقة المنفعلة التي تحاكيك بكل ما فيها، صوتها ويداها وحركات الكتفين والحاجبين وانفعالات الوجه الممتلىء المستدير، تصف جدتها بأنها كانت آسرة الجمال فاتنة الحُسن استثنائية الطلة، هيفا بيضاء لها عينان في لون العسل الصافي ولها ساقان طويلتان و "مصبوبتان" كما تقتضي معايير الأنوثة الصعيدية!

وحتى قبيل وفاتها كانت الجدة "حميدة" محتفظة بعبقها ورونق الحُسن الذي كان، حتى إن "نهر" وباقي الحفيدات كن يتلصصن عليها من خلف الأبواب ليقفن على أسرار زينتها ومفردات أنوثتها التي لا تذوي، من عطر وكحل ومصاغ رنان لامع!

وكانت الجدة الحسناء في شبابها ابنة عز، فقد وقع رجال عائلتها على "لَقية من لقايا الفراعنة" فأثرَوا ببيعها واغتنوا وتملكوا الطين والبيوت ذات "الحيشان" (جمع حوش) الفسيحة!

" لما جات الحكومة تبني كوبري في بلدنا في الأيام الزمانية قاموا جابوا أنفار ينقلوا الماروج (الطمي) من حوالين المعبد عشان يبنوا...خال جدتي حميدة كان واحد من الأنفار اللي كانوا بينقلوا الماروج، وفي عصرية وهو بيكحت الأرض بالطورية (فأس) سمع الطورية بترن! كحت كحت كحت طلعتله العروسة! أنتيكة فرعوني دهب كد متر ونص...طول بني آدم يعني...الراجل من فرحته اتلهى قام دسّ العروسة في خرج حماره ومشي ماعارفش على فين (تضحك) بقى تايه مالاقيش بيتهم... من فرحته مخه فوت ولسانه اتلَت (ارتبك)! لحد ما قابله واحد بلدياته وشافه في حال تهتهة وتوهة سحبه من يده رجعه بيتهم زي العيل التايه"!

عاد العامل إلى بيته لتكون تلك العصرية آخر عهده بالعمل بالأجرة وبالفقر وقهره، فقد قصد قنا بعد أن قام بتقطيع عروسته الذهبية إلى قطع صغيرة باعها بالواحدة إلى تجار عدة ليغدو في شهور من ذوي الأملاك!

في بيت "العز" هذا نشأت "حميدة" بهية حسناء، يُعرف حضورها من عطرها الذي يعبّق الهواء أينما حلت، فقد كانت تعرف أسرار العطور الطبيعية وتهوى تجميع المواد العطرية من العطارين المصريين والسودانيين لتصنع خلطاتها السرية السحرية التي كانت تلتصق بجلدها ولا تكاد تبرح أثوابها وسريرها وأدوات زينتها.

"جدتي حميدة كانت تجيب المحلب والصندلية والمستكة والجاوي والمسمار (القرنفل) مع الشبة والمسك وشوية دلكة سوداني...وكانت تحط خليطها دة في الهون النحاس...أياميها كانشي فيه كهربا في بلدنا لسة...وتطحن تطحن تطحن لما يبقى الخليط زي الدقيق...تدهن بيه الجسم كله مع

حتة زيت جوز هند...ومكان ما تحل تشمي الخليط بتاعها...في أوضتها..سريرها..الكنبة اللي تقعد عليها...أي حاجة كانت تمسها الجدة حميدة كانت ريحتها فيها!"

أما مصاغ الجدة حميدة اللامع دائما فكانت له أسراره هو الآخر، فقد كانت تأتي بصحن نحاسي كبير مملوء بماء الزهر الدافئ، تضع فيه حليها الذهبية وتفرك القطع بأصابعها قبل أن تجففها بقطع الصوف الطبيعي فيملأ بريقهم العيون...وفيما ما يتبقى في الصحن من ماء الزهر المخلوط بشوائب الذهب تضع مسحوق نبات الحناء لتخضب كفيها وقدميها باللون الوردي المميز للحناء...ومنذ متى كانت الجدة "حميدة" غير محناة؟!

أما شعرها فقد كانت تدهنه بالزبدة! كانت تحلب جاموستها بيديها في الصباح وتخض اللبن لتصنع منه السمن والجبن ودهان ضفائرها الذي كانت تعتقد أنه كان يصفي ذهنها ويجلي بصرها!

حين أتى النصيب وطرق الزواج بابها، كان على "حميدة" أن تشارك امرأة أخرى في زوجها...فقد اختارتها الأقدار لتكون زوجة ثانية لرجل لم يخترها، بل اختارتها له زوجته الأولى بنفسها!

" جدي جوز حميدة كان متجوز قبل منها مَرَة تانية...وعيت عليها برضو...ماتت وعمرها فوق عن 105 سنة! مكانتش بتجيب عيال الله يرحمها، وجوزها اللي هو جدي كان راجل مقتدر وعنده فلوس وطين...اخواته في يوم شاكلوه على الورث وعايروه وقالوله: يا قليل الولد! مصيرك تموت ونخش في ورثك بالشفعة...وكانت شكلة كبيرة وانضرب فيها نار...قامت مَرَت جدي قالت مبقاش إلا ولاد الكلب دول يعايروا راجلي، وقامت مدياله عشرة جنيه أيام الجنيه الزماني دة اللي كان لونه أحمر وعليه تلات جمال! وقالتله روح اتجوز وهات عيال يورثوك بدل ولاد الكلب دول ما ينهشوا خيرك!"

ولأنها تحب زوجها، فقد بحثت عن أجمل فتاة في البلد وقالت له: "اخترتلك حميدة...عَشْكان (لكي/علشان) تتمتع كمان ياود عمي"!

وكانت غاية مناها من زوجها ألا يأتي عليه يوم يطلقها فيه...وقد وفى الرجل بعهده لها حتى يومه الأخير، فمات وهي في ذمته زوجة مصونا.

"وكانت جدتي حميدة تصحى مع صوت الزرزور (العصفور) تلز الفول في الملز الفخار وتلم بيض الفَرّوج اللي في حوشها وتسلق لها عشرين تلاتين بيضة وتنزل أرض جوزها تلم البدنجان والشطة الحامية وتعمل فطارها من غير ما تشتري قشاية من حد...خيرها في بيتها...تفطر البيت وتبتدي في الغدا على وقت الظهور (الظهيرة) تكون مخلصة...في المغارب بقى تفت عيش الباتاو (خبز الذرة) في اللبن اللي حلبته الصبحية من جاموستها وتعشي البيت"

لكن الثروة التي حرصت الزوجة الأولى عليها، وظنت أنها ارتضت الخيار المر بتزويج زوجها لأخرى كي تحفظها، لم تبق طويلا...صحيحٌ أن حميدة أنجبت لزوجها الولد المنشود وعددا من البنات، لكن الولد كان على ما يبدو مرصودا ملعونا، وُلد لها ومعه شقاؤها.

"الواد سقاها المر كاسات كاسات...كان خايب في دراسته وعامل شيخ عرب بفلوس أبوه...يطلب فلوس فلوس..كَنّ أمه قاعدة على تل فلوس، ولما تقوله لأ كان يهدد انه يحرق روحه، فكان قلبها يحن وتديله، الله يرحمها ماكانتش حاكمة قصاده...ساب العلام وبعتر الورث يمين وشمال لحد ما راح عزها ومصاغها وخير بيتها...كل العمران خرب على إيده...والآخر قال معموللي سحر يامة ماقدرش أعيش في البلد...يا ولدي يهديك يرضيك...ساقت المشايخ وأهل الله قالوا كان فيه سحر وانفك...لكن هو كان خلاص نوى وعزم يسيب البلد...هج على

بحري...وفضلت هي 15 سنة تتشوق عليه وتتحايل عليه يرجع تشوفه قبل ما تموت وهو قلبه حجر...وماتت من غير ما تشوفه...فطر قلبها" .

<u>إرث الجدة حميدة: حكاية فاطنة وخيّاتها الستة والعجوز "خشيش بون"!</u>

برغم النهاية المؤسفة لحياة "حميدة" الجدة الفاتنة، غير أن وجه "نهر" يهش لذكر الحكايات التي كانت تحكيها الجدة الحالمة حين كانت تجمع أطفال العائلة حولها في ليالي الشتاء الجنوبي الطويلة.

"جدتي حميدة حكت حكايات كـَتير، لكن أنا كنت باحب حكاية فاطنة وخيّاتها مع أمنا الغولة! أصل فيها قصة حب جميلة خالص!"

وتروي "نهر" الثلاثينية التي يرتد وجهها إلى الطفولة مع استرجاع حكايات الجدة، أن "فاطنة" (فاطمة) هي الحسناء اليتيمة التي ترعى إخوتها البنات الست. البنات السبع، فاطنة وأخواتها، كن ليُتمهنّ يعشن في رعاية جدتهن الغولة! وكانت الغولة هذه تُبصر لمدة سنة، ومن بعدها تعْمى لمدة سنة وهكذا دواليك: تكون مبصرة لسنة كاملة ثم تفقد بصرها لسنة كاملة...ولأنها كانت غولة، فقد كانت بخيلة! فلم تكن تبر فاطنة وأخواتها بالطعام، فكانت الأخوات يسرقن من غنم جدتهن الغولة ليأكلوا مستغلات أنها لا تُبصر...في أحد الأعوام لم يتبق لهن من الغنم إلا نعجة واحدة، وكانت سنة عماء لدى الغولة، لكن بعد يوم واحد فقط ستتم السنة وستبدأ سنة الإبصار لدى الغولة!

قررت فاطنة وأخواتها أن تهربن من الغولة قبل انقضاء عام العماء وقبل أن يعود لها بصرها، لكن الأخت الصغرى أبت أن تهرب مع فاطنة وباقي الأخوات لأنها كانت بدينة جدا ولم تكن تقدر على الركض كباقي الفتيات!

هربت فاطنة وأخواتها من جبل الغولة، التي أبصرت في اليوم التالي فلم تجد أمامها إلا نعجة واحدة وفتاة واحدة.

"الغولة غضبت غضب شديد ومسكت النعجة وأكلتها حية نية! ومسكت البت اللي أبت ما تهرُب مع خيّـاتها وسألتها: فين فاطنة وخيّـاتك؟ قالت: هربوا! قامت ماكلاها (أكلتها)! وبقت البت تقول للغولة: كليني من إيدياتي اللي ما سمعتُ كلام اخواتي...كُليني من رجلياتي اللي ما سمعت كلام خيّـاتي"!!

وبدأت مطاردة الغولة لفاطنة وأخواتها، وكلما مرت فاطنة على محل طعام دعت الغولة قائلة: **"يارب يا فاطنة تلاقي أكل محمر ومشمر وتنشغلي وتنسيني"** فتسمع فاطنة قول لأخواتها: **"كلوا وطيروا، دي دعوة الغولة"!**

ثم تمر فاطمة على بساتين مزهرة وتراها الغولة بعين البصيرة فتدعو **"يارب يا فاطنة تلاقي ورود حلوة فتتشغلي في قطفها وتنسيني"** فتسمع فاطنة الدعوة بأذن الرعاية وتقول لأخواتها **"اقطفوا واجروا، دي دعوة الغولة"!**

وهكذا إلى أن وصلت فاطنة وأخواتها إلى البحر، فجلست تبكي وهي تسمع دعوة الغولة تتردد من حولها **"يارب يا فاطنة تلقي بحر غويط و سد حديد"!**

وتستكمل "نهر" الحكاية مطوحة يديها في الهواء لاهثة من الانفعال والشغف دون أن تعبأ بانفعال من حولها، وكأنها تسترد كل مشاعرها بينما كانت تنصت للحكاية بصوت الجدة "حميدة" نفسها وهي بعدُ طفلة:

"ولما بكت فاطنة جاها تمساح كَبير فلق البحر نصين..سألها ليه بتبكي يا فاطنة؟ قالتله عايزة اللي يعديني...التمساح قالها أنا أعديكي للبر التاني يا فاطنة وتعطيني أكل ...ركبت فاطنة وخياتها على ضهر التمساح وبقوا كل ما يعدوا سد تحط حتلة لحمة من الخروف المحمر اللي خطفوه في خشم التمساح...عند آخر سد كان الخروف خلص...قالتله أعطيك حتة من فخدي وتعديني...قالها يسلم جسمك يا فاطنة أنا حعديكي من غير مقابل! طبعا مش لاقاها جدعة؟! ما هي البت في بلادنا تعمل أي حاجة عشان عيالها!"

وتستكمل "نهر" حكايتها واصفة كيف عبر التمساح الطيب بفاطنة أخواتها إلى برالسلامة، وكيف أنه أغرق الغولة من خلفها بعد أن أركبها على ظهره فأوسعته ضربا بالشوبية (عصاة مصنوعة من رجل حمار**!**)!

"الغولة في طريقها للبحر قابلت الغراب، قالها: كاك صيدك روّح! قالتله امشي يا ابن الكلب...ومشيت ناحية البحر لقت حمار...أكلته وأخدت مصارينه لفتها عمة على راسها وأخدت رجله عملتها شوبية تتعكز عليها..أومال مش غولة بقى؟!!"

على البر زوجت فاطنة أخواتها أختا تلو أخرى، فالسترة الوحيدة لحفيدات الغولة اليتيمات هو الزواج **"والبت الجدعة ما يهنالهاش بال غير لما تطمن على خياتها!"**ثم بقيت فاطنة وحيدة يتيمة جميلة لا تعرف كيف تستر نفسها من الطامعين، حتى التقت "بالعجوز الحاني خشيش بون"، ذلك الذي تغضن جلده على عظمه، فطلبت منه أن تأخذ جلده المتغضن لتستر به جمال جسدها الشاب الفائر**!**

"قال لها يا فاطنة اغرزي المُخيَط من راسي لرجلي يسقط عني جلدي ويسترك"!

ففعلت وأماتت العجوز واستولت على جلده لتتخفى فيه، وذهبت تتمسح في قصر أمير البلاد علها تجد ما يسد رمقها، وحين رأت الأمير خارجا من بوابة قصره المنيف وقعت صريعة غرامه.

طلبت، متخفية في هيئة خشيش بون، إلي الأمير أن يبعد عنها الحرس وأن يجد لها وظيفة تسد رمقها في قصره، فعهد إليها الأمير برعاية الأوز وعيّن لها عبدا مرافقا ليعاونها لكونها "رجلا طاعنا في السن"!

"وكل ما تطلع فاطنة مع عبد من عبيد القصر، تروح معاه ناحية البحر وتقلع جلد العجوز، وتنزل تستحمى في البحر قدام عينيه المذهولين، ولما تطلع من البحر تقطع لسان العبد عشان مايفتنش عليها في القصر! وبعدها تشوي وزة وتاكلها...مع الوقت الأمير ارتاب وحاول يعرف إيه السر في إن كل العبيد اللي بيطلعوا مع العجوز خشيش بون بيرجعوا بألسنة مقطوعة، وليه الوز بينقص كل يوم وزة! قام طلع وراها واتبعها ولبد في الشجرة فوق البحيرة وشاف فاطنة وهي بتخرج من جلد العجوز...قام عشقها!"

في اليوم التالي أتى الأمير بالعجوز خشيش بون إلى جناحه طالبا منه أوزة مشوية، وحين صعد خشيش بون إلى جناح الأمير شهر الأخير سيفه فخلع الجلد المتغضن عن الفتاة الحسناء التي وقع في غرامها قبلها.

تبادل العاشقان اعترافات الحب وتزوجا سرا، إلى أن حل موسم الصيد وكان على الأمير أن يغادر القصر..بنى الأمير لزوجته السرية بقرة ذهبية ضخمة ووضعها في الجناح كي تختبىء في داخلها فلا يعرف أحد بأمرها، وأمر الخدم بأن يواظبوا على تنظيف جناحة وإدخال الطعام إلى الجناح كأنه هنالك بنفسه تماما.

ارتابت السلطانة في الأمر فاقتحمت الجناح وأخذت تفتش عن السر المكنون فيه إلى أن هداها تفكيرها إلى تحطيم البقرة الذهبية الغريبة ففعلت، وخرجت عليها الشابة الحسناء المرتعدة والتي كانت تلبس في إصبعها خاتم زواجها منقوش عليه اسم الأمير.

"فضلت السلطانة وعبيدها يكتلوا (يضربوا) في فاطنة ولوّدوها (طردوها) من القصر..ومشيت تتصعب فاطنة على حالها والمُرّ اللي في ديلها، لحد ما التقت فوّال (بائع فول) قالتله تشغلني يا با؟ قال لها امشي من هنا وأنا لاقي آكل! فاتكومت جنبيه تبكي...ساعتها بس لقى الرزق وسع والناس هلت عليه تطلب فول وبليلة...قال انتي مُرزقة يا بتي تعالي ورزقي ورزقك على الله...واتبناها"

وعاشت فاطنة في بيت الفوّال حتى انتهى موسم الصيد وعاد الأمير من البراري إلى قصره المنيف فلم يجد إلا بقرته الذهبية محطّمة كقلبه الكسير. علم الأمير ان في الأمر مكيدة وراءها السلطانة التي تنفي علمها بأي شيء، فأرسل مناديا في البلاد ينادي أن "يا عباد الله فليرسل كل من كان في البلاد صحن طعام من بيته إلى الأمير ومن يتأخر تُقطع رأسه"!

فسارع أهل البلد بإرسال أفضل ما لديهم من طعام، ولم يجد الفوّال إلا البليلة ليطلب من فاطنة إعدادها كي يذهب بها إلى الأمير...ولأن فاطنة فطينة ككل بطلات الحكايات الخرافية، فقد فهمت ما وراء نداء المنادي ودست خاتم الأمير في صحن البليلة كرسالة خفية منها إليه!

وكان الأمير يجلس على عرشه أمام رعيته التي ساقها الخوف إلى القصر، كل في يده صحنه، وكان الأمير يدس إصبعه في كل صحن باحثا عن الخاتم حتى جاء الدور على صحن البليلة الذي وجد فيه ضالته.

"وضحك الأمير! وأخد الخاتم ولبسه وفضل ياكل في صحن البليلة وهو مبسوط ومتكيف عاالآخر! والناس تضرب كف بكف! بقى الأمير ما يرضاش ياكل المحمر والمشمر وياكل البليلة...لا وكمان أمر العبيد يملوا الصحن دنانير ذهب للفوّال! وقبل ما يصرف الفوّال وصاه على الأمانة اللي في بيته...الفوّال فكّر إن الأمير بيأمنه على الدنانير، انما هو في الحقيقة بيأمنه على مييبين؟ على حبيبته...فاطنة" !

و طلب الأمير من الفوال أن يرد عليه أمانته التي في بيت الفوال، يقصد فاطنة، كي يعلن زواجهما علىالرعية...وقدكان!

"وأول الأمير ما شاف فاطنة خدها من باطها (احتضنها) قدام عموم الناس ولا همه شيء...يا سلام ما الحب جميل...بالك أنا باحب الحب نفسه...انا ماتجوزتش عن حب واتطلقت بمشاكل وحقد ومرارة تكفيني العمر كله...لكن باحب الحب ولسة عندي أمل أحب وأتحب... زي فاطنة والأمير تمام"!

السيدة "صاد": أخوف خوفي على شرف بتي!

السيدة "صاد" (أربعينية متزوجة لديها من الأبناء ثلاثة) تتميز عن المحيطات بها بجمال سنيمائي، وإن كانت غطته السنون والإجهاد و"حملان الهم". لازال وجهها الصبوح وجسدها الممتلئ يشيان بجمالها الذي كان دائما مجلبة للمشاكل عليها منذ صباها، فهو مبعث غيرة رجال البيت وفوران دمائهم عليها، وهو محرك غيرة نساء العائلة منها وكيدهن المكائد لها!

السيدة "صاد" امرأة ضحوك ودود ومحبة للحياة. تجلس أمامي "متربعة" مازجة الجد بالهزل ومالئة الدنيا بضحك عال من ذلك الذي يصيبك بعدوى الضحك فتجد نفسك تضحك معها أنت الآخر دون أن تدري علام ولا لم!

لم تكمل "صاد" تعليمها لأن أباها لم يفهم يوما لم قد تحتاج امرأة للتعلم! تكفيها القراءة والكتابة، أما ما يزيد على ذلك فلا يلزمها في شيء، فقط "جخجخة فاضية ومرقعة"...أما عمل نساء البيت في نظره فكان معرّة وخزيا لم يكن ليرضاه، حتى وإن كان البديل الموت جوعا وعريا!

لكن السيدة "صاد" تعتقد أن أقدارها عموما كانت رحيمة، فقد حبتها بزوج حنون وسخي بخلاف نساء أخريات ابتلتهن أقدارهن برجال تسمع عن قسوتهم وشحهم على نسائهم:

"صحيح انا كمان جوزي بيضربني...بس أنا اللي باكون غلطانة! أنا أصلي مَرَة لساني طويل (تقولها وتضحك بصوت رنان)...وبعدين هو كل مرة بيضربني بيرجع يصافيني، وخلصنا! ولا شوفنا ياختي ولا رينا (رأينا)...هو الحق يعني راجل حنين...عيبه الوحيدة انه فقير".

زوج السيدة "صاد" (سائق، 53 سنة) لا يفرق في المعاملة بين ابنته وولديه، فالكل عنده سواء، والكل بين يديه مستحق للرعاية والحنو، وزوجته لديه أغلى من أن تعمل أو تكدح لأي سببٍ كان "حتى لو حناكل طوب".

أكبر المشكلات التي تواجه "صاد" وأسرتها هي سد رمق الأسرة الكبيرة ذات الدخل المحدود. في بداية زواجها رضيت السيدة "صاد" أن يعمل زوجها في السعودية بينما تنتظره هي هنا مع الأبناء، فلا يلتئم شمل الأسرة إلا مرة كل عام.

" عادي...كل الرجالة هنا بتسافر وتسيب نسوانها...والنسوان ما بتصدق تخلص من رجالتها! أصل قعدة الراجل في البيت بعيد عنك حاجة صعيبة، مايخليش الواحدة منينا تتنفَس...انما انا عشان باحب جوزي، كنت بقى أبعتله جوابات في البوسطة ويبعتلي شرايط كاسيت عليها صوته ويحكيلي واحكيله...لا انتي متعرفيش انا رومانسية أساسا (تقولها وتضحك بصوت عال مسترجعة بعض المشاهد الرومانسية من أفلام مصرية قديمة)! "

وتحكي "صاد" كيف أن غيرة نساء زوجها منها دفعتهن لأن يدبرن لزوجها السحر في كل مرة يزور فيها زوجته في إجازاته القصيرة والمتباعدة في مصر فكانوا "يربطونه" على حد تعبيرها، أي يقرأون عليه قراءة معينة تمسه بعجز جنسي مؤقت يعجز معه عن معاشرتها لحين تنتهي الإجازة!

"غلبت يا بتي...كل أجازة على دة الحال...الراجل ياجي من هنا يربطوه من هنا...آخد فانلة عرقه فيها وأطلع على واحدة سحارة جارتنا، تقوللي: رابطينه ولاد النجس! وتفك الربط فيقوم في ساعتها زي الحصان!"

و على كل هيامها ورائحة الرغبة التي تفوح من حديثها حين تتحدث عن زوجها، فإن السيدة "صاد" لا تلبث أن تعترف بعقلانية مدهشة أنها إن لم تكن أتت لزوجها بالولد، لكان قد طلقها أو تزوج بغيرها منذ زمن، فالولد ظهر أبيه وسنده، والمرأة التي لا تأتي بالولد لا تستحق قصص الحب الملتهبة "**وساعتها كان يا بتي لا حب ولا رشدي أباظة ولا يحزنون بقى**"!

حين انتهى تعاقد الزوج في السعودية كان على الأسرة أن تستكمل حياتها بدخل أقل بكثير، فاضطر الولدان للعمل بعد أن استنفد بناء البيت "بالمسلح" جل مدخرات الزوج من عمله بالسعودية.

"أنا عارفة إن جوزي لو بايده حيجيب لنا حتة من السما، بس مافيش...عشان كدة أنا باعذره مرات لما يفش خلقه فيا ولا يشتمني ولا حتى يضربني، لأنه مخنوق...عامل زي لامؤاخذة الأسد المتسلسل وإيه بايده...أنا فكرت أساعده وأروح أشتغل بحري، بس أنا كدة أجيبله العار وألطخ اسم أبويا الله يرحمه".

وعن أبيها هذا الذي تخشاه وتحفظ اسمه حيا وميتا تحكي "صاد" أنه كان **"قهوجي، إنما كان نزيه ومنزه نفسه، وكان يلبس ويتفيح (يتعطر) بكل اللي في جيبه"!** ولم يكن يترك في بيت أمها ،زوجته الثانية، إلا جنيهات خمسة أو ستة كل شهر، عليها أن تدبر أمورها وأبنائها في حدود هذه الميزانية، ومايزيد فليس من شأنه! لكن هذه الذكرى لا تثني السيدة "صاد" عن أن تعيش حافظة لاسم أبيها ومصدرة صورته كرجل مهيب لا يستحق جلب العار على سيرته لا بالتعلم ولا بالعمل!

ولعل أطرف ما حكت السيدة "صاد" وبانفعال هو كيف أن بيتها مبني على كنوز فرعونية وممياوات وتماثيل، وكيف أن أحد مشايخ القرية من المعروفين بالفتح والكشف وقراءة الغيب أكد لهم أن دورة مياه البيت تحديدا مقامة على مقبرة فرعونية لم يمسسها بشر...ولا ترفض السيدة "صاد" الطرح بالكامل، فهي ليست الحكاية الأولى من نوعها، بل إن أحد جيرانها كان تاجرا بسيطا

ثم أشيع أنه وقع على مقبرة فرعونية تحت أرضية بيته، فأصبح يغترف من ذهب الفراعين وعاجهم وزئبقهم ويتاجر في الآثار حتى تمكن من بناء العمائر الرخامية العالية **"بقى كل ما يحتاج يكبش من الجبانة الفرعوني ويبيع"!**

لكن “صاد” ترفض المتاجرة في ما تعتقد أنه لا يخصها، والأهم من ذلك أنها ترفض أن تهد بيتها جريا وراء ما لا تراه بعينها!

"وكِيف يا بتي أهد البيت كيييف؟! كيف ودة شقا العمر كله..دة لو من تحتيه مال قارون ماهدوش...دة مبني بالمِسلح!"

ولا تعتقد السيدة “صاد” عموما كثيرا في حكايات المشايخ والمبروكين والمكشوف عنهم الحجاب، فقد جربتهم من قبل حين ضربها نزيف حاد كاد يستنزف جسدها، ولم يفلح المشايخ المزعومون في وقف النزيف ما اضطرها في النهاية للجوء إلى التداوي بالطب!

أما حلم السيدة “صاد” الذي تتحدث عنه بصوت آمل خاشع فهو أن تتحصل على المال اللازم لفتح "بوتيك ملابس" في محيط قريتها، وأن تديره هي وابنتها فلا تخشى الفاقة من بعدها أبدا ولا تحتاج للاستدانة مرة أخرى ودخول "الجماعي" وسواها من تلك الحلول التي تلجأ لها النساء المعوزات هنا. أما أهنأ لحظات الخاطر لديها حين ينغلق باب البيت في نهاية كل ليلة على صغارها الثلاثة وقد نام كل في مهجعه قرير العين معافى في بدنه دون ثأر يطارده ولا سمعة سيئة تترصد به، ساعتها فقط تبتسم السيدة "صاد" راضية مرضية وتنام قريرة العين.

أما أخوف ما تخافه السيدة “صاد” فهو أن يمس شيء ما "شرف البت" ..ابنتها، الآنسة "“سين”" البالغة من العمر 20 عاما، والتي تبدو كنسخة مصغرة من الأم، بنفس الحُسن ونفس القدرة على الضحك.

فتستعجل السيدة “صاد” الأيام والأقدار كي تسوق لابنتها فارس الأحلام كي "يسترها" ويقتلع هواجس الأم الكثيرة المتعلقة بشرف ابنتها. فالبنت، كما تراها أمها، "هبيلة"، أي حسنة النية يسهل استقطابها باسم الحب أو الحرية أو أي من هذه المفردات التي توقع الفتيات في شراك الخطيئة الكبرى وهتك قدس الأقداس!

أما عما يشغل الآنسة “سين” نفسها...

تتحدث “سين" التي تتأرجح بين المراهقة والرشد عقب حديث أمها بصوت خافت لا يسمح لأمها بأن تلتقط منه الكثير، قائلة إن أمها "حنانها حلو" لكنها كثيرة الخوف تحاصرها بالخوف والاتهامات والأسئلة كما لو كانت طفلة وهو ما تضيق به "“سين”" كثيرا.

وبخلاف هواية متابعة الأفلام الهندية ومحاكاة زينة الفنانات الهنديات بوضع علامة حمراء على الجبهة وتعليق حلق متدل بالأنف، فلدى الآنسة "سين" هواية غريبة هي تتبع حكايات نساء المصريين القدماء وما كن يرتدين وكيف كن يتزين وكيف كن يوقعن بالرجال في حبالهن! حتى إنها أحيانا يحلو لها أن تحدد عينيها بالكحل على طريقة الفراعنة!

"أنا باحب أزور معبد إدفو وأتفرج على الرسوم الفرعونية وأستمع لعرض الصوت والضوء...شوفي الست الفرعونية كانت بترسم عينيها كيف بالكحل؟! حاجة صبية (أي

مليحة)...وكانت بتهتم برشاقتها وبالعطور والزيوت...وبشريك حياتها وبالحب...أنا باحب الستات الفراعنة وأحب أقرا كيف كانوا عايشين"

وتتمنى "سين" أن تعيش طيرا مهاجرا بعيدا عن الصعيد، ربما في بحري وربما خارج مصر بالكامل. فحياة الصعيد لا تناسب مزاجها.

"مرة واحدة بس سافرت بحري (القاهرة) في منطقة اسمها شبرا فحسيت كأني رحت عالم تاني! كل دي حرية ومحلات وعالم رايحة وجاية؟! أنا في مصر (القاهرة) كنت بالبس براحتي وكنت باتكلم بحراوي ولا كأني عشت في الصعيد عمري كله!"

لكن "سين" تكتفي مؤقتا بحلم إنهاء تعليمها الجامعي (معهد بترول وتعدين ومساحة- أسوان) إلى أن تأتي الحياة بمفاجآتها، وإن كانت تعرف أنها تأخرت في الزواج مقارنة بنديداتها اللاتي تزوجن وهن في الإعدادي!

وعن حكايات الشرف التي تشغل أمها وبالتالي تشغلها، فتحكي الآنسة "سين" أن هناك العديد من الحكايات التي كانت بطلاتها فتيات وقعن في الحب على غير رغبة آبائهن، فكان الخيار الوحيد أمامهن هو الهروب مع العشاق، ولأن الآباء يمكثون في انتظار بناتهم باعتزام الذبح لغسل شرف العائلة بالدم فإن الفتيات لا تعدن أبدا.

"وكيف تهجر البت ناسها وتجيب راسهم في الطين؟!"

لكن تظل الحكاية الأعمق أثرا في نفسية "سين" هي حكاية زميلة دراستها التي ذبحها أخوها في نومها لتتناثر الأقاويل بعدها عن "شرفها" وكيف أنها ولابد فرطت فيه وإلا ما كانت لتلقى هذا المصير الموجع، وهكذا ظلت الأقاويل والحكايات تنتقل من فم إلى فم تنهش نهشا في جسد الفتاة

المقبور وفي سيرتها حتى جاء يوم اعترف فيه الأخ القاتل على نفسه بأنه قتل أخته لأنها كانت تمنع عنه ذهبها وهو المدمن الذي تملكت عقله المواد المخدرة!

تحكيها "سين" بأسى على زميلة دراستها التي لاقت أتعس مصير ممكن تصوره، واصفة كيف أنها تجنبت حتى المرور من أمام بيت الزميلة القتيلة، خشية أن يصيبها شيء من تعاسة قدرها.

لكن الآنسة "سين" استجابت بمرونة حين طلبنا منها أن تصحبنا في رحلة ذهنية أكثر رواقا بعيدا عن حكايات الشرف والقتل، فحكت بابتسامة حلوة عن جدتها لأبيها واسمها "ست اخوات" عُمرت لما يزيد على المائة عام. كانت "أم اخوات" امرأة متغضنة لكبر السن، تملأ وجهها وجسدها التجاعيد، ولم يعد لديها صبر ولا بال على الأطفال، فكانت كثيرة التدخين كثيرة السهر وكثيرة الصراخ والاشتباك مع الكبار والصغار على حد السواء... فيما عدا "سين"! لسبب ما كانت تحنو على "سين" دون سواها، وكانت تخصها بالصحبة في رحلتها السنوية الغامضة، التي تعتقد "سين" أنه كانت لها علاقة بطقس فرعوني ما :

"كانت حَنينة عليا أنا...يمكن عشان كنت باعرف أسايسها وأعملها اللي عايزاه...أفْكَر (أتذكر) كيف كانت تتعكز على العصاية بتاعتها وتاخدني معاها مرة كل سنة في موسم فيضان النيل ومعاها "صُرّة" فيها جوزين حمام محشي وفطير هي اللي خابزاه بايديها وتروح ترميه في البحر (نهر النيل)...وكانت ترفض تعطي الشحاتين والطُلبية من الأكل دة...كانت ترميه "ليهم" ...هم مين ماحدش عارف...بس هي كانت بتقول ان اسمهم ملايكة البحر وانهم بيزوروها في المنام ومايفارقوهاش غير لما ترمي الزيارة في البحر"!

تحكي "سين" وتبتسم شاردة مسترجعة الطقس الغريب، قبل أن تنظر في أوراقي لتتأكد من أني تمكنتُ من كتابة اسم الجدة "ست اخوات" بطريقة صحيحة!

حكاية "أم ملاك":

ملعون أبو يوم ما تحبي راجل عشرته وحيشة!

لا تعرف السيدة "أم ملاك" عمرها، لأن أوراق ميلادها فُقدت من سيالة شيخ البلد بينما يتجه من قريتها الجنوبية الفقيرة إلى بندر المدينة كي يسجل ميلادها في الصحة! قدرتُ عمرها بمنتصف الأربعينيات فعدّلت تقديري قائلة إنها تظن أنها دخلت الخمسين بالفعل...

" وخمسين ولا ستين...وآني يعني حتجوز تاني؟!"

تقولها "أم ملاك" ضاحكة بملامحها الدقيقة وعينيها العسليتين وشعرها الفضي اللامع المتفلت من تحت طرحتها السوداء.

لم تفهم "أم ملاك" تماما ما وراء حديثي إليها وفيم تقليبي في أوراقها القديمة وصناديق ذكرياتها المُقفَل، لكنها مع ذلك راق لها أن تشاركني شيئا من ماضيها وأحلامها، بشرط واحد:ألا أؤذيها في يوم بحكايتها!

"ما تأذنيش... أحكيلك اللي انتي رايداه كله بس ما تأذينيش بكلامي...آني مرة هجالة!"

سألت عن تلك المفردة الدخيلة "هجالة" فضحكت حتى ترجرج جسدها الممتلئ وقالت: **"هجالة عندينا يعني أرملة...يعني جوزي اتنيح"**...ففهمت أنها تخشاني وتستعطفني بحال ترمُّلها مخافة أن أخون أمانة حكايتها وأضع على لسانها ما لم تقل، وحين قطعت على نفسي أمامها عهدا بألا أفعل...حكت...

"ماحناش فراعنة كيه ما بيقولوا، انما نعرف أصولنا زين...جدي الأكبر نزح من المنيا على اسيوط ومن بعده ولاده نزحوا من أسيوط على أسوان... أبويا كان فقير وأمي كانت تسعي الطير (تربي الدواجن) وتبيع بيضه عشان تكسينا وتوكلنا...وفي الآخرغني ولا فقير، مسلم ولا مسيحي كل راجل صعيدي عايز من صلبه راجل عشان اسمه يعيش وذريته تنتشر في الأرض! أمي جابت أربع بنات، ومن بعدها دفّنت تمان عيال، تحبل وتسقط وتحبل وتسقط لاجل ما تجيب الولد...لحد ما جابته، وعشان يعيش سمته الشحات!"

ويبدو من حكايات "أم ملاك" أن لذكرى أمها مكانة خاصة في تكوينها وتشكيل وجدانها، فقد كانت، كما ترسم "أم ملاك" ملامحها، امرأة حانية صبورا وصانعة سلام من حولها، نذرت حياتها لأبنائها وكنيستها، وزرعت في بناتها ما وجب من الحياء وحب الخير والصبر على المكاره، وقبل كل ذلك، الإيمان العميق بالمسيح قولا وفعلا.

"أمي كانت مَرَة على نياتها واصل وكانت ست صاحبة دين...مكانش في حياتها شيء غيرينا احنا والكنيسة...مكانتش تحكيلنا حكايات، كانت تقول روحوا اسألوا أبونا على حكايات القديسين، انما كانت تحفظنا الترانيم...ولا كانتش تروح لسحارين ولا تسمع للنسوة الرمالات (ضرابات الودع)..ولا كانت تشاكل الجيران، ولو حد شاكلها كانت تروح قبل المغرب تصافيه وتقول له: ربنا قال لا تغرب الشمش (الشمس) على غيظة...و لما كانت تتعب كانت تروح تناجي العدرا في

الكنيسة...أفكرها في يوم الأحد كانت تصحى من بدري تخبط على كل أبواب البيت وتنادي: الكنيسة...اصحوا...جرس الكنيسة ضرب"

ولأنها كانت "مُسلّمة للمسيح" فلم تكن تمارس الأم الطيبة، كما تتذكرها "أم ملاك" طقس "العـِدّيد" على الموتى، ذلك الطقس الكئيب الثقيل والموروث من قديم في صعيد مصر، بل كانت تواجه من تمارسنه من نسوة القرية بالمنطق والعقيدة داعية إياهن إلى تذكر حقائق الحياة **"الرب نفخ روحه فينا، وحتما في لحظة يسترد أمانته...كيه نعدّد واحنا خابرين ربنا زين"**، ولم تكن كذلك تؤدي واجب العزاء "على الجبانة" كما يحلو لبعض النسوة أن يفعلن، على الأقل ليظفرن بأكياس الرحمة (يوزع أهل المتوفى لكل معزية كيسا يحتوي على ثمرة فاكهة وقطعة مخبوز وقطعة حلوى)، وكانت تقول **"وإيه ينوب الميت من روحتنا إلا ملوة بطوننا؟"**

ولم تكن تلك المرأة الربانية تجلس في مجالس النسوة ممن يتمازحن بالفاحش من القول والحكي، ولا كانت تقبل مسامرات النساء عن الرجال والعشق وليالي الهوى، وماكانت تسمح لبناتها بحضور "الفرحات" (الأفراح) ولا حتى بالذهاب لتلك الكنيسة البعيدة في قلب الجبل، وكانت حيية ربت ابنتها "أم ملاك" على الحياء منذ صغرها حتى إن "أم ملاك" حين تزوجت، ظلت محتفظة بعذريتها عدة أيام بعد إتمام مراسم العُرس حياء من أن يمسها عريسها، الذي كان ابن عمها وخطيبها لسنوات طوال!

"من كتر ما كانت أمي مقفلة وربت فينا الخجل، ماقبلتـِش أبو عيالي يمسني في ليلة دخلتي، ولا تاني يوم ولا تالت يوم ولا حتى رابع يوم...فيييين يا بتي بعد ما ساق عليا السياق (أرسل من يتوسطون لديها) حتى اللي رضيت"!

<u>ملعون أبو الحب لو العِشرة وحيشة!</u>

بدأت "أم ملاك"حياتها الزوجية متأخرة مقارنة بباقي فتيات عائلتها وفتيات الشارع الذي تسكنه والذي يشكل الأقباط أغلبية سكانه. كان عمرها حين تزوجت 29 عاما، لكن ما كان باليد حيلة، فقد كان عليها أن تنتظر ابن عمها حتى يدخر ما يمكنه من الزواج.

"ولما اتجوزت كت عروسة شاطرة...أطبخ وأخيط وأصنع (أخبز) وأسعي الطير زي أمي تمام".

ولأن زوجها المتنيح لم يكن سوى موظف بسيط بوزارة الصحة، ولأنه حين تنيح ترك لها معاشا ضئيلا وثلاثة من الذكور المدللين، فقد كان على "أم ملاك" أن تعمل، ومن بين مهاراتها المتعددة اختارت مهارة التفصيل والحياكة، أو اختيرت لها قدرا كما قالت، كي تتكسب منها وتستعين بها مع معاش زوجها الزهيد على الحياة.

"ربنا كبر الخياطة في دماغي وساقلي كبارات البلد وعُمد من البلاد اللي جنبينا يخيطوا عندي...وكنت أخيط وكل زبون ومقدرته...الغني بيدفع والفقير بيدفع...بس الغني بيزيد لي في الفلوس شوية، وأنا في الشغل باراضي الكل...بس خلاص الجاهز ماخلاش للخياطين لقمة عيش، دة غير ان النظر بقى عالقد... دوك ما حيلتناش غير المعاش".

وتفتقد "أم ملاك" زوجها المتوفى، لكن ليس كثيرا! فبعض الأزواج يجعل الموت حياة نسائهم أزهى مما لوعاشوا!

"حياتي معاه كانت عذاب في عذاب...يعلم الله كان بيبخل عليا حتى بالضحكة، وكان ضحكه ووقته وسره وخيره كله لاخواته! كتير اتمنيت يكون عندي خيار الطلاق...بس احنا ولاد

الكنيسة ومالناش غير الكنيسة...والكنيسة مابتسمحش بالطلاق إلا لعلة الزنا...مكانتش عشرته زينة...ملعون أبو الحب على اليوم اللي تحبي فيه راجل عشرته وحيشة"

لكن هذا الغضب الذي يحيك بصدر "أم ملاك" لم يمنعها من أن ترتدي السواد حدادا لسنوات منذ أن فارقها زوجها، ولا أن ترتدي دبلة زواجهما التي كانت في يده خلال رحلة حياتهما معا في يدها اليسرى إلى جوار دبلتها. كما لم تمنعها سنوات التعاسة الزوجية الطويلة من أن تتذكر السنوات الأولى لزواجهما والتي كانت "سمنا على عسل" كما قالت.

والأعجب من ذلك، أن كل المرارة التي تغلف ذكرى زوجها، لم تمنع شيئا من الدلال أن يعلو وجه "أم ملاك" حين استرجعت غيرة زوجها عليها! فقد حكت "أم ملاك" بوجه خجل نصف مبتسم، وهي التي لا تزال محتفظة بقدر كبير من حُسنها الذي كان، كيف أن زوجها كان شديد الغيرة عليها، وكان يرفض أن ترتدي زوجته الجميلة الجونلات الواسعة التي تجعل ساقيها أميل للانكشاف مع حركاتها المتوثبة، خشية أن يسترق رجال القرية النظر إليها وإلى ساقيها الجميلتين! كما كان يرفض رفضا قاطعا أن يراها تكتحل أو تتزين قبل الظهور خارج البيت.

"كان في التسعينات فيه موضة الجونلة الكالوشة النازلة عالواسع دي...كنت أخيطها لروحي وألبسها، ودة يشوفها عليا ويجن جنان! ويبدأ يزعق بقى: اقلعي الكالوشة دي بعدين الرجالة يبصوا فيكي"!

لكن ما تلبث "أم ملاك" أن تسترد نبرة الأسى والإشفاق على الذات حين تسترجع الجوانب "الوحيشة" من علاقتها بزوجها، تحديدا إقتاره عليها وعلى عيالها في الرزق:

"كان يجيلي رؤيات أعرف منها هو مخبي فلوسه فين، أو معاه كام، أو عطى اخواته هدايا إيه وبينكر، وكنت أقوم أفتش مكان ما الرؤيا تدلني فالاقي الفلوس المخفية، ولما كنت أواجهه مكانش

ينكر...بالعكس...كان يخاف مني! ولما تعبت من الرؤيات من كتر ما جرّت عليا نكد وبينت لي هو كان كد كيف كداب، طلبت من أبونا يصليلي علشان تختفي الرؤيات...واختفت"

لكن "أم ملاك" تعتقد في نهاية المطاف أن الله كان صاحبها طوال رحلة زواجها التعيس، وإلا لم كانت كلما دخلت الكنيسة باكية شاكية، وجدت ترنيمة تناسب حالها وتطيب خاطرها وكأن الله يخاطبها هي بالذات في هذه اللحظة دون غيرها؟!

المسلمون...ضيوف العذراء المدللين!

تروي "أم ملاك" بمزيج من الاندهاش والتسليم كيف أن بعض المسلمين يتدللون على العذراء والقديسين فتدللهم أكثر مما تفعل مع المسيحيين، وكيف لا والكل يعرف حكاية "أماني" الفتاة المسلمة التي أصيبت بمرض مجهول ملعون جعل شعر جسدها بالكامل يتساقط كورق الشجر في الخريف! الفتاة التي كانت حسناء تحولت خلال أسابيع إلى مسخ بلا شعر على رأسها ولا حاجبين ولا رموش...طلبت عائلتها الدواء من كل حدب وصوب في مصر، شمالا وجنوبا، بالطب وبغيره دون جدوى حتى كان تجلي السيدة العذراء عليها لتدفع عنها "أم النور" السوء كله دون حساب.

"جاتها العدرا في المنام، وأخدتها من إيدها على دير وادي النطرون، ووقفتها قدام صورة العدرا تتبرك بيها، ومن دير وادي النطرون أخدتها العدرا تاني على دير "درنكة" في أسيوط وقالتلها حتلاقي خمس حنفيات مية بعد صورة العدرا، تقفي عند الحنفية الخامسة وتغسلي جسمك كله بالمية وتبرأي من اللي بيكي"

و لبّت "أماني" دعوة السيدة العذراء وبحّرت،وفقا لرواية "أم ملاك" متجهة إلى دير وادي النطرون، وأنصت أحد كُهان الدير إلى قصتها، وليختبر صدق الرواية أتى لها بصورة ورقية للعذراء كي تتبرك بها، فقالت له المريضة العاشمة في الشفاء" انت بتضحك عليا يا ابونا...مش دي الصورة اللي العدرا وريتهالي في الرؤيا" فلما صحبها إلى أيقونة كبيرة للعذراء في قلب الدير، هشت وبشت وقالت إنها عين ما رأت في منامها، فلمس الكاهن صدقها وصحبها في رحلة عبر أروقة الدير ترحيبا واحتفاء!

"السواق اللي أخدها من أسوان على وادي النطرون ورجع بيها على أسيوط، كان مسيحي، ولما عرف حكايتها مارضيش ياخد منها أجرة الرحلة...القصة ومافيها انه البنية صحّت (برئت) وشعرها رجع...لما حكالنا أبونا في الكنيسة عالحكاية دي بقى نازل يقوللنا: يا قلالات الإيمان...مش لو كان إيمانكم شديد كانت العدرا تتجلى لحد منيكم انتم!"

وتضحك "أم ملاك" وهي تحاكي غضب الكاهن، مسترجعة حكاية أخرى كان بطلها مسلما كذلك...لكن هذا المسلم بدأ حكايته بالاستخفاف بالمقدسات المسيحية، بحسب رواية "أم ملاك"، وانتهى وقد أدبه مار جرجس!

"دة كان واحد مسلم وصاحبه مسيحي، المسيحي كان نادر ندر لمار جرجس واتحقق، فراح يوفي الندر، قام سخر منه المسلم وقاله: طب أنا ندر عليا لو ربنا شفاني من الداء اللي بيا لأعطي لمار جرجس شوال مليان قشر بصل! قام مار جرجس شفاه من مرضه! يعمل إيه طيب؟! وكيه يملا شوال قشر بصل؟! من فين يجيب؟! راح لأبونا في الكنيسة وحكاله الحكاية وهو مكسوف من روحه، الكاهن قاله دة ندرك يا ولدي ولازم توفيه...ولف المسلم على كعابه البلد بيت بيت يلم من النسوان قشر البصل عشان يوفي بندره...مار جرجس علّمه الأدب!"

لكن ألطف نذر يمزج بين الإسلام والمسيحية تعرف "أم ملاك" بحكايته هو نذر امرأة في أسيوط، مسيحية تصوم يومين في كل رمضان منذ سنوات وفاء بنذر ما لا يعلم أحد ما هو، وإن كان الكل يشهد على صيامها الرمضاني المثير للاستغراب دوما!

ثرثرة أرامل الصعيد على الموائد الفاخرة...التي لم يعتدنها!

كدت و"أم ملاك" نفرغ من الحديث، لولا أن أشرق وجهها بابتسامة واسعة طالبة مني أن أنصت لحكايتها الأخيرة!

وكانت حكاية "أم ملاك" الأخيرة عن زميلاتها في الترمل من بنات قريتها واللاتي لترملهن تهتم بهن الكنيسة بشكل خاص، فتنظم لهن الرحلات للترويح عنهن ولخلق روح من المودة والتضامن بينهن.

"الناس الغناي في بلدنا يدفعوا عطايا للكنيسة، فتقوم الكنيسة توسع على الفقير اللي زي حالاتي شوية...تاخدنا رحلة ...توكلنا أكلة حلوة...كدة"

وتصف "أم ملاك" رحلة الكنيسة الأخيرة التي قصدت بهن أحد مطاعم أسيوط المطلة على النيل، قائلة إنها كانت رحلة ساحرة فاخرة، التفت فيها أرامل القرية حول الموائد العامرة بالمطعم، وقد وضعت أمام كل منهن الصحاف الزجاجية والملاعق اللامعة والسكاكين المفضضة، هن اللاتي لم يعتدن مثل هذا الترف في قريتهن الجنوبية الفقيرة، ولم يكن ليتذوقن هذا النعيم لولا مساعدة الكنيسة لهن.

"مكان نضيف، بيقدموا فيه شاي ونسكافيه ومعاهم بقسماط..والغدا سخينة فراخ (دجاج مطهو بصلصة الطماطم والبصل) والحلو بطيخ...بقيت أبص في النسوان حواليا وكل واحدة ما سكة الشوكة والسكينة وأقولهم: يعني واخدين عالمطاعم أوي يا بنت الكلب منك ليها؟! نسيتو الطبلية خلاص؟! (تقولها ضاحكة)"

ثم تحكي كيف أن هذه الجلسات تكون متنفسا هاما لأرامل قريتها، ففي مثل هذه الجلسات تفتح النسوة قلوبهن لتحكي كل واحدة قصتها وقصة زواجها الذي انطوت صفحته بموت الزوج، ومعاناتها المستجدة أو المألوفة مع الوحدة وتربية الأبناء وضيق سبل الحياة، طالبة الصلاة من رفيقاتها عسى يفرج الله بها كربها وينسيها التعاسة التي عاشتها مع زوجها الراحل حتى تغفر له، أو السعادة التي عاشتها معه حتى تستيطع أن تكمل الحياة دونه.

" معانا واحدة جوزها كان بلطجي...بس هي عشقته..لما راح طلبها من ناسها رفضوا، قالهم تجوزونا برضاكم في الكنيسة ولا اخدها غصب واكتب عليها في الجامع؟! فجوزوها! ووراها الويل وسقاها الحنضل...هي دلوقتي أرملة ورسمت لبتها الوحيدة صورة خيالية عن أب مثالي كنه بطل فيلم!أومال يعني تقولها ابوكي كان بلطجي؟!"

وتنهي "أم ملاك" ثرثرتها الحُلوة معي بقولها إنها لم تعد تتمنى من الدنيا إلا أن يُشغل الله أبناءها الثلاثة وأن يزوجهم لبنات طيبات يرعين عشرتهم، وهو ما لا تقدر عليه الآن، ذلك أنها لا تملك ما تمهر به فتيات أحلام أبنائها **"طب مافيش فلوس...على إيه حنشتهي في بنات الناس؟"**

ثم لم تنس بعد السلام أن تعيد تذكيري بالعهد الذي قطعته على نفسي بألا أؤذيها بحكايتها في يوم ما، والعهد دين يشهد على صاحبه يوم القيامة.

حكاية السيدة "ميم"... عن الرجال الذين لم يعودوا سندا لنسائهم

السيدة "ميم" امرأة ثلاثينية ضئيلة، دقيقة الملامح لها عينان مكسورتان ووجه مليح قلق وغير مرحاب. ترتدي السواد، ليس فقط في جلستنا هذه، بل في أغلب أوقاتها، كما تحكي هي عن نفسها.

توقفت "ميم" في تلقي تعليمها كمعظم الفتيات في قريتها، عند الحصول على دبلوم التجارة، برغم أنها، كمعظمهن كذلك، كانت لديها أحلام أكثر عرضا في الحصول على درجات علمية أعلى، على الأقل لاقتناص زوج أفضل حالا من زوجها السائق البائس الذي تتجرع معه مرارة يومية خالصة.

تقول "ميم" بلهجتها الجنوبية بجيمها المعطشة والتي لا تخالطها اللهجة "البحراوي" لا بتلقائية ولا تكلفا:

" في بداية حياتي كان عندي استعداد أسافر إن شالله لحد أسيوط عشان أكمل علامي...أقله كنت اتجوزت راجل عليه القيمة...لكن أخويا الله يسامحه قال معندناش بنات تكمل علامها، وأمي مَرَة مكسورة وكسرتني وياها...لا دافعت عني ولا عن حلمي، ولما أبويا جبرني أتجوز أبو عيالي وماكنتش رايداه أمي بَرْضَها (كذلك) استسلمت ومادافعتش عن رغبتي...كنت رايدة واحد تاني، لكن ماحصلش نصيب ...لحد دُوك (الآن) باسأل عنه وعن أحواله وعن عيشته مع مرته...أنا باحسدها انها أخدت الجدع دة بالذات لأنه واد رَجيل (جدع) وحَنين...بختها أحسن من بختي "

بعد الزواج تكشف للسيدة "ميم" أن تخوفاتها جميعا كانت في محلها، فالرجل المقتر الذي يكبرها بحوالي عشرة أعوام يتسم بالعنف ولا يعرف وسيلة للتواصل أمثل من الضرب والتعنيف، فهو شخص "غير متفاهم نهائي" على حد تعبيرها، يتفنن في إيلامها بالضرب ورميها بأقبح الأوصاف وأنبى الألفاظ على مرأى ومسمع من بناتها الثلاث الصغار، والرد من جانبها دوما هو الصمت...هو ذات الرد الذي ورثته عن أمها حين كان الأب يضربها...الصمت...وبم قد ترد النساء على رجالهن حين يضربوهن غير الصمت ؟!

"أصل أنا شعري طويل خالص خالص...فياجي جوزي الله يجازيه ماسك شعري ويلفه على كفة إيده لحد ما يملك راسي وياجي خابطني في الدولاب لحد عيني ما تورم كد كدة...اسألي البنات أهو...هم وعيولي (رأوني) وعيني وارمة"

سمعت "ميم" بأرقام الخطوط الساخنة التي تدعو النساء المعنفات للتواصل معها من أجل الدعم والمساندة أو الإرشاد، لكنها تعرف أن لا شيء يقدر على أن يرد عنها "قدرها"! لا شيء يقدر على أن يدفع عنها قسوة زوجها، ولا أن يعيد لها حبيبها الذي ضاع منها دون سبب، ولا أن يجعل رجال العائلة يذعنون لرغبتها في التعلم والعمل، ولا أن يبدل إحدى بناتها صبيا يعينها على قسوة زوجها أو على الأقل يهدئ خاطره عله يكف قليلا عن تبكيتها ومعايرتها بأنها "أم النبات".

"كان نفسي أجيب صبي عشان يبقى سندي في دنيتي ويبقى حبيبي الجديد ويحن عليا...بس الحقيقة اللي اكتشفتها بعد سنين جواز انه اذا كان ابويا ما نفعنيش، حينفعني ابني؟ خلاص يا داكتورة، زمن الراجل اللي كان يسند أمه ويصلب عودها كدة ويقف في ضهرها خلاص راح...دة كان زمان... دوك أنا خلاص ماعدتش عايزة لا صبي ولا بت...ماعايزاش أخلف تاني "

وتعتبر "ميم" أنها قد ورثت طبع أمها وتعاستها وانكسارها أمام قهر رجال العائلة، ولا بأس(!) فاللي حصل حصل، لكنها لن تقبل مهما كان أن تورث هي بناتها كل ذلك الانكسار والقهر...ولن تسمح لرجل أن يشكل أقدارهن كما يحلو له، فحياتها كما تراها لم يعد من أمل في تغييرها، الأمل الوحيدة الباقي هو حياة الصغيرات الثلاث.

"خُلع إيه دة اللي ربنا اداهولي؟ ربنا مادانيش رُخصة عشان أطلع من حياتي اللي هو قدرهالي...ربنا اداني حاجة واحدة بس: العقل...اداني عقل أحمي بيه بناتي...هم دول اللي أنا عايشة عشانهم"

وتعتقد "ميم" أن بقاء الأب في حياة بناتها، حتى على قسوته وشحه الشديد، هو العاصم الوحيد لهن من الانحراف...فالأم لا تخيف البنات ولا تحميهن من الرذائل، لكن الآباء القساة يفعلون. لذا تحتفظ "ميم" بزوجها ولا تفكر يوما في الانفصال عنه...فهو الضامن الوحيدة لـ "سترة البنات"...فقط لا غير....أما بالنسبة لها هي فهو فقط "أبو البنات" ولا دور له في حياتها أكثر من ذلك، فلا هو شريك ولا ونيس، حتى مصاريف البيت تتكفل بها أمها مشاركة مع أبيها، وأما العلاقة الحميمة مع زوجها فهي لم تعد ترغب بها ولا "تؤديها" إلا غصبا واغتصابا.

"مع ان الحاجة دي المفروض ماتحصلش غير بين اتنين بيحبوا بعض...انما أنا حتى ماعدتش أغير عليه...ولا عاد يفرق معايا يروح يكلم واحدة تانية ولا يبص برة...خلاص قلبي اتقفل من ناحيته"

حين انفتحت سيرة أحلامها ومشاريعها الشخصية، أنار وجه السيدة "ميم" ربما للمرة الأولى منذ بدأت في الحديث، فقالت بعينين أضاءهما شيء من الأمل:

" لو معايا فلوس كتير كنت أتصيغ... أصل أنا بعت الدهب اللي كان حيلتي كله عشان أفك أزمة أبو العيال في أول جوازنا...لو كان دهبي قاعد كان بقى سند ليا دلوقتي...أنا باحب الدهب مش حاقولك ما أحبوش...بس منين؟! الدخل عالكد...ولو معايا فلوس كمان أحج بيت الله...وأجوز البنات وأسترهم...يارب ما يكون انكتب عليهم يعيشوا زي عيشتي ولا يشوفوا اللي أنا شفته...أنا تعيسة وحياتي انتهت ومابقاش عندي أمل أجيب الولد ولا أمل في أي شيء غير اني أشوف بناتي أسعد مني ومن أمي وبس"

وحين صمتت السيدة ميم طويلا كأنما تعلن أنها أنهت الكلام المباح، تدخلت إحدى المجالسات كأنما لتختم حديث رفيقتها قائلة إن ميم أرسلت لها رسالة قبل أيام قائلة: **"حاجة من تنتين (اثنتين): يا إما ربنا مكانش خلقني وهو عارف إني حاعيش عيشة السواد دي، يا إما يسيبني لحالي أموت نفسي وأخلص".**

وصمتت صاحبة المداخلة وميم..وأنا معهما.

حكاية "نواعم"... أن تجود المأساة بالضحك!

هذه قصة استدعت في ثنايا حكيها ضحكا كثيرا مباغتا مراوغا لا يلائم هموم الجنوب ولا شجنه ولا بوح نسائه...هؤلاء النساء المتكتمات الصابرات المرتابات في مثيلاتي من مرتديات "البنطلون"!

نواعم، صاحبة الحكاية ومن باحت لنا بها، بدأت حكايتها بشيء من الشجن ربما فرضته للحظات حالة السرد والاسترجاع واستفزاز الذاكرة بأشجانها وهمومها الثقال من المسكوت عنه، لكن ما لبثت حكايتها أن أضحكتها فملأت هواء الجلسة بعدوى ضحك من ذلك الذي لا تملك له رادا! ضحك نسائي عال مجلجل قلما تسمع مثيله هنا...في الصعيد!

بدأت "نواعم"، الثلاثينية ذات الصوت العريض والقامة المتينة، حكايتها بزواجها التقليدي الباعث على الملل منذ بواكيره، حتى إنه لاشيء فيه جدير بالتذكر أو الحكي التفصيلي الحالم: **"جوزوني جواز تقليدي وخلفت بتين وولدين"!** هكذا فقط تلخص "نواعم" حياتها الزوجية وكأن زواجها وإنجاباتها كانت أشياء جرت عليها في غفلة منها!

ثم تبدأ "نواعم" في الإفصاح عن اللحظة الجديرة بالتذكر في حكايتها والتي تعتبرها بمثابة "العقدة" التي تدور حولها أحداث حياتها الزوجية:

"في التسعينات كان طالع موضة التليفون الهوائي الجوال دة (اللاسلكي)، وكان جوزي ياجي في ساعة العصاري يطلع على سطح بيتنا وياخد معاه الهوائي دة وياخدله ولا فدان رط (ثرثرة) ...وأنا أقول بـرُبّ (ربما) بيكلم ود عمه...ود خاله... الغرض ومافيه، الجيران جو في يوم قالولي

جوزك بيكلمله واحدة وعامله حب ومعشقة في التليفونات...وعشان تتأكدي افتحي الراديو حتلاقيه لاقط صوت جوزك والبت اللي بيتعشق فيها!"

وبالفعل! اكتشفت "نواعم" أن زوجها وأبا أبنائها الأربعة يهاتف سرا صديقة عمرها فيهامسها ويدللها بما لم تعهده "نواعم" ذاتها منه من عبارات الغزل والهوى!

واجهت "نواعم" الزوج العاشق فلم يُنكر، بل زاد في إحراق قلبها بأن أكد أنه سيتزوج عشيقته، ونكاية فيها سيتزوجها على "خشب أوضة نومها"، ثم بدأ أمام عينيها الباكيتين في فك دولاب غرفة نومهما ليهديه لعشيقته وعروسه المقبلة!

"كلمت خالتي...أصل أمي مَرَة غلبانة خالص ...ياكل عشاها البس (القط) زي ما بنقول في الصعيد!"

ويبدو من سرد "نواعم" أن الخالة في وجدانها منذ صغرها تُشكل السند والحمى وإن كانت هي كذلك المرأة ذات الغرائبيات والتي تثير أينما حلت زوابعها الأقوى تأثيرا... وإضحاكا!

تبدأ "نواعم" في الاسترجاع الضاحك لشخصية الخالة بهيئتها وطبعها وألفاظها التي تجعل منها شخصية كاريكاتورية استثنائية الحضور والتأثير!

"قال ويقولوا نسوان الصعيد مكسورين! طب ياجوا يشوفوا الخالة! خالتي دي بقى مَرَة طويلة كدة وجامدة (ممتلئة)، لما توقف تسد عين الشمش (الشمس)! وتلاقيها عاصبة راسها بطرحة دورين ولابسة الجلابية التفصيل القطيفة وفي ودانها الحلق الدهب الزماني اللي عامل كِيه

خراطة الملوخية! ولو دخلتي عليها في حوش بيتهم تلاقيها قاعدة وقدامها الشيشة وباكو المعسل...ترص الحجر ومن فوقيه البصاية (الفحم الموقد) وتكركر!"

تقولها "نواعم" ضاحكة كأنما ينسيها استرجاع مشهد خالتها بحضورها الطريف وغير المألوف خيانة زوجها وصديقة العمر!

"كلمت الخالة ..يا دوبها سمعت صوتي وقالت: خبار يا بت؟ إيه فيه؟ حقة ولا صوتك ولا سلامك...انطقي يابت!"

فقالت لها "نواعم" إن النار قد أمسكت في حشاها وأنها لا تقدر على الحديث، فأمرتها الخالة بحسم أن تأتيها في حوش بيتها كي تستنطقها: **"نار؟ هي وصلت للنار؟! نار وأنا على وش الدنيا؟ حطي المخروبة (سماعة التليفون) اللي في يدك وتعالي يا بت احضري قصادي"!**

ولبّت "نواعم" أمر الخالة دون كثير جدل فوضعت طرحتها الشاش على رأسها و "البُـك" (حافظة الفلوس) في صدرها تاركة صغارها نائمين وزوجها يفكفك غرفة نومهما لحين ترى هي مع الخالة كيف تدبر له انتقاما يليق بفعلته الغبراء!

"ومشيت في عز الليل جري على الخالة تشوفلي صرفة!طب وأنا مين يغيتني (يُغيثني)؟! أول ما وصلت على بيتها دفست الباب برجلي فتحت الضرفتين...كانت خالتي متربعة عالدكة بتشد في الشيشة...المَرَة اتخلعت من دخلتي وقامت على حيلها تسأل: إيه يابت فيه؟ حقة ولا دخلتك عليا! قلتلها يا خالتي الراجل ابن الكلب متصغرن وعاملّـه حب في التليفونات!"

وهنا تنفجر "نواعم" في ضحك متواصل مقلدةً خالتها في أدائها وحركات جسدها التي تتسم بشيء من الذكورة وسخونة الدم، مستعيرة ألفاظها غير المألوفة بصوت مفتعل يذكرك بصوت شخصية

"المعلمة أطاطا" الشهيرة! كانت تسترجع أداء خالتها وانفعالها وصوتها الغريب ضاحكة وكأنما تروي مشهدا من فيلم، لا فصلا من حياتها كانت الخيانة الزوجية عنوانه!

"قامت الخالة فطت من مكانها ودست باكو المعسل في صَدرها! طب على ايه يا خالة ماخدة المعسل في صَدرك؟! قالتلي: احتياطي! وخرجت الخالة من خشم الباب وهي شغالة تقول: ياباي ياباي ياباي! يتمعشق عليكي وأنا على وش الدنيا؟ طب يستنى اما أموت! طيب! طيب يا ابن الوسخ! فُك يا خويا الدولاب على مهلك فك...راجعالك!"

قفزت الخالة متينة البنيان داخل سيارة نصف نقل كانت مملوكة لزوجها المتوفى، وإلى جوارها "نواعم" مذهولة باكية، و توجهت الخالة فائرة الدماء بابنة أختها كسيرة القلب إلى حيث تسكن الصديقة العشيقة.

هجمت الخالة على بيت أهل الصديقة العشيقة فلم تجد الفتاة، فواجهت أمها بالحكاية كلها دون مواربة مهددة إياها بفضح الفتاة **"العشاقة بتاعت الولاليد"** كما وصفتها بسرد حكايتها بالكامل عبر **"مكرَفون على ضهر العربية النص نقل"** في كل أنحاء المحافظة! فتوسلت لها الأم المذهولة المرتعدة ألا تفضح ابنتها وألا تهين شيبة زوجها، وارتمت على قدميها تقبلهما فقررت الخالة الجدعة أن تصمت من باب ستر الولايا فقط.

" لكن فكرك الخالة همّلت المَرَة أم صاحبتي على كدة؟ والنبي أبدا! وقفت ساكتة شوية في حوش بيتهم بعدين قالتلها: سمعنا ياختي ان الراجل الواطي جاب لبتك خَلَقات (ملابس)...خشي ياختي هاتي الحاجات اللي جابها ابن الكلب دة... دي فلوس بتي وعيال بتي!"

ثم جمعت الخالة ذات الحضور الغريب والتي يبدو أن سطوتها تعتمد إلى حد بعيد على تأثير غرائبيتها في النفوس، جمعت كل الهدايا التي أتى بها زوج "نواعم" لعشيقته بإصرار وتدقيق على ظهر عربتها النصف نقل وغادرت المكان متوجهة للأب كي تذيقه شيئا من الذهول والإرهاب هو الآخر!

وتستأنف "نواعم" ضاحكة ملء فمها:

"أخدت خالتي العربية النص نقل وطيّشنا (توجهنا مسرعين) عالقهوة اللي أبو البت صاحبتي بيسهر فيها، خالتي سايقة العربية وشغالة تلعن في أبوخاش جوزي وتشتمه شتايم لامؤاخذة قبيحة خالص ماقدراش أقولهالك، وأنا جنبيها باتفرج عليها و ماعرفاش إيه أقول!"

وبمجرد وصولها للمقهى المنشود اقتحمت الخالة المكان قاصدة الأب الذي عقدت المفاجأة لسانه فأنصت للحكاية من فم الخالة واجما قبل أن يُقسم بأغلظ الأيمان أنه فهم من ابنته أن زوجة هذا "العريس" مريضة مقعدة وأنه لهذا يعتزم الزواج عليها!

هنا بلغ السيل الزُبى وكادت الخالة أن تفقد صوابها تماما! فالقصة لم تقف عند حد "المعشقة" و "الصغرنة" والتلويح الأجوف بالزواج الثاني كما ظننت، بل إنها وصلت لعهود الزواج وكلام الرجال **"لا وكمان حيمرضلي البت ويقولك مشلولة؟! طب بس أما أشوفه اللي شغال يفكلي في الدولاب دة"!**

وكلما أتت سيرة "الدولاب" في الحكاية جلجل ضحك "نواعم" أكثر كأنما كان حديث الدولاب باعثا لذهنها على تصور الزوج منهمكا في تفكيك دولاب غرفة النوم غافلا عما يحيك له القدر من انتقام يليق به على يدي الخالة!

هددت الخالة أبا الفتاة العشيقة بفضحه وفضح ابنته في كل مجلس في وجه قبلي إن لم يوقف هذه الزيجة فانصاع الرجل خجلا من نفسه ومن غفلته عن سلوك ابنته الشائن واعدا بتأديبها وحجبها عن كل عين حتى تتزوج بمن يسترها، ثم غادرته راضية عن أدائها عازمة على إتمام مهمتها!

"رجعت مع الخالة عالبيت..دخلنا لقينا الراجل متشعبط بيفك آخر ضرفة في الدولاب (تضحك) قامت الخالة كابسة عليه نزلته من عالسلم بيدها وهبدته في الأرض وبَرَكت فوقيه وراحت مسمعاه كلام مايصحش يتقال: بقى انت تتجوز على بتي يا كذا ويابن كذا! وهددته قالتله: طب وشرف النبي أنا ما أخليك راجل تاني! وحياة رسول الله لاخليك ما تعرفش تجيب عيال تاني ولا تقيم شنبك وسط الرجالة تاني ان شالله أروح فيك في حديد (تضحك "نواعم" ضحكات طويلة مقلدة انحناءة خالتها على الزوج المسجى على الأرض قبل أن تقلد أداء الخالة المسرحي في جملتها الختامية: "هاتي سكينة المطبخ يا بت!"

وكان هذا التهديد الأخير، الذي يبدو أن الزوج كان مدركا أن الخالة قادرة على تنفيذه، كفيلا بإجهاض كل مشروعاته للحب والزواج الثاني وما شاكلهما! فقد تعهد الرجل، ممسكا بسرواله، بألا يعاود فعلته الخرقاء مرة أخرى!

"ومن ساعتها ياختي وهو ماشي زي الألف من كَد ستاشر سنة وزيادة" !

تقولها "نواعم" وهي تقهقه ناسبة الفضل للخالة التي لا يجود الزمان بمثيلاتها كثيرا، فيثير ضحكها الممتن هذا ضحك جميع الموجودات وحسدهن المخفي، خاصة أولئك اللاتي تتمنين لو أن في حياتهن خالة غرائبية كهذه لتهي مآسيهن الزوجية بكل هذا الحسم ...وكل هذا الضحك!

حكاية "حسناء"... بنت الخمار

لأن أباها كان خمار البلد في الثمانينيات والتسعينيات، وُصمت "حسناء" منذ بدايات الوعي وربما ما قبل الوعي حتى، بمهنة أبيها، وعُزي تعثر حياتها دائما إلى كونها "بنت مال حرام".

ليست "حسناء" حسناء في الحقيقة! لكنها من ذلك الطراز الذي يُشهر أنوثته في وجه المجتمع غضبا وتحديا لأعراف المجتمع الذي وصمها مرة لأنوثتها ومرة لأنها ابنة ذاك الذي لم تختره ولم تختر مهنته.

حسناء امرأة شابة متوسطة الجمال تقترب من الأربعين بقدر كبير من الإحباط والغضب، وشعور عام بأن الأيام خذلتها وبأنه كان في الإمكان أحسن مما كان، لولا أن الأقدار شاءت لها غير ما شاءت هي لنفسها!

ككثير من نديداتها، أحبت "حسناء" في مطلع شبابها ولد عمها وسافرت معه إلى إحدى دول الخليج على أمل أن تغير أموال الخليج حياتهما لدى عودتهما إلى الصعيد، فمضت أيامهما هادئة إلى أن أنجبت مولودها الأول وجاءت أنثى...ثم مرت شهور أخرى فبُشرت "حسناء" بأنثى ثانية...واثنتان

من الإناث على التوالي هو أمر كفيل بإحداث شرخ ما في علاقات الأزواج هنا..في الصعيد الجواني!

"في الوقت دة ابتدا يكلم صاحبتي في التليفون...كانت مصرية اتعرفنا عليها في الغُربة، وكنت فاكراها ونيستي واللي بتصبرني على غربتي...لحد ما عرفت انهم بيحبوا في بعض في التليفون في انصاص الليالي...لما فضحته رجعني على مصر انا وبناتي غصب وحرّش (حرّض) أمه واخواته الحريم عليا خلاهم ادوني كتلة موت (ضرب مبرح) ورموني أنا وبناتي في الشارع ورمى عليا يمين الطلاق من غير لا حق ولا مستحق!"

كان أبو "حسناء" آنذاك في نزعه الأخير، يستعد للقاء ربه بذنوبه وتوباته، وكان البيت الكبير خاويا من الخير.

"حتى خيتي التانية جوزها اتقبض عليه في قضية مخدرات وجات عندينا بيت أبويا...كنا عالكفاف وأمي من قهرتها على حالنا دخلها المرض الوحيش وماتت ...عشان كدة لما اتقدملي الراجل الكبير أخدته...بعت نفسي ورضيت أبقى ممرضة لراجل عمره فوق عن 80 سنة عشان نلاقي ناكل ونصرف عالعيال ... وهو الحق يتقال كان غني وسخي وعرفت معاه البرفانات النضيفة واللبس بتاع نسوان بحري وقلعت الجلابية السودا ولبست الدهب واشترالي أرض وبنالي بيت خمسة أدوار وصرف على بناتي في مدارس نضيفة ماكناش نحلم بيها، وبقيت أعمل لبناتي عيد الميلادات زي ولاد الناس...مش بس كدة، وكمان سفرني وراني الدنيا اللي عمري ماشفتها...لفيت معاه من بلد لبلد حتى مارينا رحتها!".

تزوجت "حسناء" من الرجل الطاعن في السن آملة في أن يرفرف ملك الموت بجناحيه فوق رأسه عما قريب فينهي مأساتها وتظفر بميراث يعوضها برودة لياليها الطويلة في صحبته، لكنه لم يمت! مرت السنون وئيدة عليهما ولا هي تعتاد زواجها البائس ولا الرجل الطاعن في السن يلقى ربه!

"شبك في رقبتي ومعايزش يموت! طول الليل أغلي في ينسون و أدلك في رجليه وأدلك في ضهره...حتى خَلَقي الجديد وقمصان النوم ما لبستهاش! شحتـّها كلها على النسوان صحباتي يلبسوا ويتهنوا! كنت حاسة اني دفنت شبابي ومابقاليش حياة...آه هو صح كان بيريدني بس شبابي كان بيتحرق "

ولجأت "حسنا" إلى القضاء كي تحرر نفسها من زيجتها فحُكم لها بالطلاق، الأمر الذي أتى على ما تبقى لطليقها من طاقة على الحياة فتدهورت حالته الصحية بُعيد الطلاق حتى لاقى ربه!

"وقبل ما يموت بعت قاللي انه لسة رايدني وحيموت وهو رايدني، وعرفني انه كتبلي فلوس كد الكوم باسمي عشان اتمتع في عزه وهو حي وهو ميت!"

كانت تلك هي المفاجأة الأكبر في حياة "حسناء" وأكرم مما انتظرت من أقدارها، فأعانت أختها الأصغر على حياتها بشيء مما ورثت، واحتفظت بالباقي لخططها المستقبلية التي قررت أن يكون الحب أحد أركانها.

<u>يا خمار افتح باب الخمارة...يا خمار وزيد الخمرة مرارة!</u>

دأبت "حسناء" على البحث عن زوج ثالث يعوضها عما لاقت في زواجيها الأول والثاني، حتى ألقت شباكها على شاب من أسرة كبيرة جاورت أسرتها لسنوات، واتفقا: يقبلها هو زوجة بماضيها ووصمة أبيها الخمار، وتغنيه هي بثروتها الموروثة عن طليقها الطاعن في السن!

ولأنه كان "فتىً" أي لم يسبق له الزواج، ولأنها موصومة بخمر أبيها وزيجتيها الفاشلتين فلم يكن بمقدورهما الإعلان عن هذا الزواج خوفا من تدخلات أهله وضغوط المحيطين. لكن ما لبثت أن ظهر حملها الأول عليها ولم يكن بد من إعلان الزواج.

"كنت قاعدة وسط النسوان وبطني كد كدة! إيه يا بت فيه؟ امتى حبلتي يا ماكلة ناسك؟! قلتلهم كل واحدة تحط عينها جنب أختها ولسانها جوة خشمها يا حرمة منك ليها...أنا متجوزة على سنة الله ورسوله..بس عرفي!"

وطار الخبر من الجلسة النسائية "المغلقة" إلى كل مكان في البلد: "حسناء" تزوجت للمرة الثالثة لكن هذه المرة زواجها عرفي وسري...حكاية جديرة بأن تُحكى في كل مجلس! "

"وعرفوا ناسه وحكمت عليه أمه يطلقني...ناسه كانوا شايفني واطية وتربية مال حرام ومتجوزة مرتين...مكنتش مناسبة لشرف نسبهم العالي...كرهتهم وحقدت عليهم لما جبروه يطلقني وقلت اللي في بطني حينصفني ويطلع واد...حجيب الواد وأكسرهم عشان يرجعوني لابنهم غصبت عينهم...وفعلا اتنصفت وجبت الواد وبعتلهم مراسيل ودبحت الدبايح، وقلت كلها ايام ويرجعلي وراسه في الطين عشان الواد اللي من صلبه وشايل اسمه، لكن الواد مات في بحر أسبوع!"

لكن "حسناء" التي أسفت على خيانة زوجها الأول والعمر المهدور مع الزوج الثاني وخذلان الزوج الثالث لم تأس كثيرا على فقدان وليدها ابن الأيام السبعة، فالمرارة في كيلها تكفيها وتفيض، وقدرها

لدى الناس ممن يعرفون أباها ويلعنون تاريخ دكانه ونجس خمرته لن يزيد على ماهو عليه...ستظل موصومة وتورث الوصمة لابنتيها مهما جرى.

"واتطلقت تالت و اتجوزت رابع! جدع من برة البلاد...كان حافي مالاقيش اللقمة، واتفقنا: يتجوزني وأعمله مشروع! مانا ماقدرش أعيش من غير راجل...بس هو اشترط أقطع ناسي نهائي...وافقت واشتريتله خلاط أسمنت يأجره للبناوية (مقاولي البناء) وقطعت ناسي بالكامل وعشت...صحيح اتطلقت منه ورجعتله تاني لكن أهيني عايشة ...واتحجبت وبقيت أصلي الفروض كلها وبطلت أعمل عيد ميلادات للبنات عشان عرفت انها حرام!"

عن النذور المؤجلة والأمنيات المرهونة

تحكي "حسناء" كيف أنها كانت تنذر النذور في كل مرة تأزم فيها حياتها، أو في كل مرة يكون بها رغبة ما مرهونة بشيء ما غيبي لا تفهمه! ومن بين تلك النذور كان نذرها أنه إن عاد إليها الزوج الثالث "أبو الواد" لكانت تصوم شهرا بالكامل و "تفرّق بياض" أي أرز بلبن أو بليلة بلبن أو فطير بلبن!

"والندور أنواع...وفيه ندور ربنا بيسمع أصحابها ويديهم اللي في نفسهم...وفيه ناس تانية تندر وتصدق في الندر وربنا ما يحققش اللي طلبوه...ليه متعرفيش! هو حر عاد في عبيده! "

وهناك من يلقي بنذره على أحد المشايخ كأن يقول "ألقيت نذري على شيخ فلان" أو على "القديس فلان" كتلك المرأة المسلمة التي تعرفها "حسناء" والتي لم تكن تنجب إلا إناثا **"فقالت شالله يا مارجرجس! لو ربنا اداني واد لأرميه عليك"** وبالفعل شفع لها مارجرجس وأتاها الولد**!**

"ومن وقتها وهي بتحضر مولد ماجرجس مع ولدها كل سنة" ! وأعرف واحدة تانية ندرت بعد الثورة لو ماجندوش ولدها لتعمل فتة وفطير باللحمة وتوزعه عالبلد...أصلها كانت خايفة الواد يتكتل"

وهناك من يكون نذرهم زيارة سنوية لشيخ بعينه،وهم محملون بما تجود به المقدرة من ذبائح وغلال وهدايا...

"تلاقي ناس مثلا طالعين الجبل بقلاب (عربة نقل) محملة خير...رايحين يوفوا ندر للشيخ الفلاني...وهم عالعربية يغنوا ويقولوا:افتحلي القبة جيت ازور..جيت ازور...جيت ازور"!

حتى بعد وفاة الشيخ، قد يقام له ضريح ويتلقي النذر عنه النقيب... أو النقيبة**!**

"أنا ريت (رأيت)بعينيا نُـقَبا نسوان...بعد ما الشيخ يتوفى تلاقي له نقيبة مَرَة وتتلقى الندور والدبايح من الناس!"

لكن أغرب نذر صادفته "حسناء" في حياتها، كان نذر "الخالة فهيمة" التي عاشت ضريرة والتي كف بصرها في كبرها، فعانت معاناة الضُر بعد الإبصار.

"الخالة فهيمة دي بقى ندرت لو اترد بصرها لتقلع عريانة وتجري في البلد كلها زلط ملط كدة (تضحك "حسناء")! وكل البلد كانت عارفة بندرها...وكانوا الجدعان يحارنوها (يشاكسوها) وياجو جنبيها ويسألوها: إيه يا خالة فهيمة؟ مش حنشوفك حمرا (عريانة) إياك؟ فتروح شاتماهم

شتيمة وسخة! لكن الله يرحمها بقى ماتت على كدة ...من غير ما تفتح...وأهو...هم يبكي وهم يضحك"

حكاية "عزيزة":

هاتفيني سرا لأحكي لك عن الحب... و ندوب الضرب على ظهري!

لم ألتق بـ"عزيزة" (22 سنة) ولم يكن لي أن أفعل!

فـ"عزيزة" تسكن في بيت مرصود! أمٌ ذات قبضة من صُلب وإخوة يعرفون كيف يضربون بالجنزير حتى يحفروا آثار "رجولتهم" غائرة في ظهور نسائهم!

لم يكن من بُدّ من الحديث سرا إلى "عزيزة" عبر الهاتف الذي لاتعلم الأسرة باختبائه في طيّات ملابس "عزيزة" منذ زمن! هاتف سري ومهاتفات ليلية مختلسة بيني وبين "عزيزة" هي كل ما أتيح لي من التواصل معها. مهاتفات يبدو أنها كانت نافذة الحياة الوحيدة المشرعة أمام "عزيزة" على الأقل لحين إشعار آخر.

سألت "عزيزة" عن هيئتها، علّي أقدر على استدعاء صورة من تحادثني فضحكتْ وقالت "**عارفة هيفا وهبي؟؟حاجة كدة يعني!**" ثم استدركت ضاحكة "**لا بجد...هم بيقولوا اني حلوة...بس مش هيفا يعني...ممكن نقول ليلى علوي!**"

لا تعرف "عزيزة" لم شعرت بالرغبة في سرد تفصيلات حياتها على مسامعي في الهاتف، هي التي لا تعرفني ولم تلقني ولا مرة واحدة، لكنها كما قالت طاب لها أن تلقي في حجري بحكايتها.

بدأت معي من تغريبة الأسرة من محافظة صعيدية لأخرى، بسبب خصومات وحزازيات في العائلة، فكان أن لملمت الأسرة حاجياتها من قرية أسوانية فقيرة إلى قرية سوهاجية غير مترفة!

"أبويا وأمي هجرو بلدنا وأنا لسة في اللفة...ماوعاش على جدودي، ولا بيت العيلة، ولا اتحكالي حكايات زي باقي العيال"

<u>ليست كل أم يُقال لها "يامّة"</u>

أم "عزيزة"، كما قالت، "مَرة جافية"، زاد جفاؤها وتشقق قلبها قسوة بوفاة زوجها، أبي "عزيزة"...قسوة اختلطت بغيرة نسائية بدائية لم تُهذبها الأمومة حملتها الأم إزاء الابنة الشابة الحسناء التي تحب خطيبها وتحلم بالزواج منه...وكأن حُسن الابنة وحُبها المشهود مُنكرين إذا لم تكن الأم إلا أرملة تعسة!

"أنا شفت مرار كتران خالص...أمي صعيبة...ماحستش بحنانها ولا قلتلها يامّة من سنين...لما أبويا اتوفى أمي كرهت الدنيا وقسيت عليا زيادة على قسوتها...كان نفسي أكمل علامي بس أمي قالت: مانيش كَد مصاريفك...فكرت اشتغل في صيدلية عشان أساعد نفسي وأكمل ثانوي هانتني وشتمتني...لدرجة انها كانت ترمي الفلوس تحت رجليها عشان أوطي آخدها بالمذلة...قلتلها ليه بتعملي معاي كدة؟ قالت: أنا عايزاكي تفضلي عايشة تحت رجلي كدة وأرميلك الأكل زي الكلب!"

حتى المصروف اليومي الذي تحصل عليه تلميذات المدارس كي تبتعن ما يسد الرمق طوال اليوم الدراسي أو حتى الحلوى لتحلية الريق، فكانت الأم تمنعه عن "عزيزة" خشية أن تتمرد أو تخرج عن طوعها! فكان الجوع لزيم "عزيزة" طوال يوم دراستها.

"كنت أخرج جعانة وأرجع جعانة...ومرات كنت أدس الأكل في هدوم المدرسة، عشان ما تصبحنيش بكلامها القاسي"

هكذا, فيما يبدو، قررت الأم أن تكون تربية البنات!

<u>صانع الحلوى الحاني...الأب الذي كان</u>

كان أبو "عزيزة" ابنا لأحد كبار مشايخ بلادهم الأولى، إلى أن دبت الوقيعة بين الرجل وابنه، بسبب سوء طبع الأم الغيور، فحكم الشيخ ذو المكانة على ولده بالرحيل عن البلاد إلى أجل غير مسمّى. ولأن أبا "عزيزة" كان رجلا مسالما طائعا، يوقر أباه ككل رجال الصعيد، وبرغم قسوة الحُكم خاصة في حُكم العائلات الجنوبية التي تحرص على الالتئام والتماسك، فقد لملم الرجل كل ما يخص الأسرة الصغيرة ورحل ذات فجرية و"عزيزة" بعدها رضيعة. وعرف الأب الطريد منذ ذلك الحين أنه سيكون الأب والعائلة والعزوة لأبنائه من بعده، بعد أن قُطعوا وانقطعوا عن بيت عائلتهم الكبيرة.

"أبويا الله يرحمه كان طويل وعريض، وكان عنده غمازات أما يضحك لما كان يضحك تحسي ان النور حيطلع من وشه...لسة ضحكته مرسومة في وشي... كان جايبلي سبّورة أكتب عليها في البيت عشان أتعلم، لأن هو كان مِتعلم...وكان بيشتغل حلواني، وأنا الوحيدة في اخواتي اللي أخدت منيه الصنعة...كان يعمل أحلى بسبوسة، ويلف بيها في الجناين وعند المدارس عشان يترزق...واللي كان يسألني أبوكي بيشتغل إيه كنت أقول حلواني بالفُم المليان...عمري ما استحيت من شغل أبويا"

ولأن "عزيزة" كانت الأثيرة من بين بناته، والأقرب إلى قلبه المليء بأثقال المعيشة وضيق الرزق، فقد كان يحمل دوما صورتها في حافظته، ويحنو عليها بشكل خاص بحيث كانت طلباتها كلها مجابة، حتى في وقت العُسرة والضيق، وكان الطموح يملأه لابنته فكان يسبق كتابة اسمها على السبورة المنزلية بلقب "الدكتورة" آملا في أن يجلب عليها اللقب النجاح الذي يتمناه لها.

"وكان يسهر على قصادي أنا وباذاكر في الليل، يقوللي أحسن الخوف ياجيكي...وكان يقوللي ادعيلي يا "شيخة عزيزة"! عمره ما كان يشتم ولا يقول العيبة...وكان يقوللي: اللي تكرهيه يا "عزيزة" ادعيله!"

وتحكي "عزيزة" بصوت متدلل فيه مزيج غريب من شجن الذكرى وفرحة الطفولة التي كانت، كيف أنها طلبت من أبيها الذي كانت تناديه "ياباه" أن يحضر لها "سويتر" لتزهو بحُسنها فيه كباقي الفتيات، فاشتكى لها الأب ضيق الرزق معاتبا إياها على إثقاله في هذه العُسرة...ثم لم يلبث أن اختفى الحلواني الطيب يومين على ذمة الترزق وابتغاء الأسباب قبل أن يعود لها مناديا مالئا البيت باسمها كي تحضر لترى "السويتر" الجديد!

"وأهو لسة السويتر في دولابي ماتلبسش بقاله سبع سنين...محتفظة بيه بس عشان خاطره...عشان هو جابهولي في وقت قــِلّ (قلة موارد)...وكمان الشبشب اللي جابهولي يقبل ما يتوفى شايلاه من سنين في دولابي عشان فيه عرقه وشقاه وحنية قلبه عليا"

وحين قرر أن يأتيها بأم المفاجآت، التليفون المحمول، كادت الأم أن تشتعل غيظا وغيرة، وليطفئ الحلواني الحكيم غيظ الأم الغيور، نهر ابنته ونهاها عن استخدام الهاتف المحمول قائلا إن بنات العائلات الشريفة لا تحملن الهواتف، وبعد أن هدأت عواصف الأم مرر الأب الحنون الهاتف الجديد سرا لابنته كي تستخدمه في الخفاء وتفرح به لكن من دون جلبة!

وفي ذات فجرية شتوية، خرج الأب مبكرا وراء الرزق، ليرتاد المتنزهات وما حول المدارس علّه يبيع شيئا من حلواه هنا أو هناك، لكنه وهو المصاب بحساسية حادة في صدره، نسي شاله الصوف، فداخل المرض صدره الضعيف بلا رحمة لتكون بداية النهاية.

"وهو راكب عالإسعاف في ساعاته الأخيرة كان بيوصي اخواتي ينقلوا ملفي من المدرسة الإعدادي للمدرسة الثانوي! والله مرات لما الدنيا تقسى عليا، أسمّر عيني على باب البيت وأقول دلوكتي أبويا يرجع يطبطب عليا...مش ربنا قادر على كل شيء عاد؟!"

<u>الحب والفقر: متلازمتا الأفلام المصرية..والصعيد!</u>

تحب "عزيزة" خطيبها وابن عمها عامل البناء بإحدى القرى السياحية والذي تصفه ضاحكة فرحة بأنه "أقرع"! تحب حنانه الذي يذكرها ببعض حنان أبيها المُتوفّى.

سألتُ "عزيزة" إن كانت تحبه فقالت إنها تحبه بشدة، لكنها "مخاصماه" منذ يومين لذا فلن تسهب في الاعتراف لي بحبها الآن، بل ستنتظر لحين يصالحها!

لكنها برغم ذلك أسهبت في الحديث عن الرجل الذي تتمنى أن تجمعها الأيام به ليكون سندها وأبا أبنائها المرجوين من الدنيا، قائلة إنه فقير ومن بيت فقير، لكنها لا تنسى أنها رأت الدموع في عينيه يوم أن نقلها إلى المستشفى بعد أن أوسعتها أمها ضربا حتى خلعت كتفها على أثر مشادة كلامية!

"إخواتي الرجال بيضربوني بالجنزير لحد ما علّم في ضهري...أمي بتحرشهم عليا (تحرضهم) عشان يضرُبوني...بس مش دة المهم...المهم اني شفت خطيبي بيبكي عشاني...مش قليلة برضو لما راجل يبكي...ودة صعيدي!"

و تظل غيرة الأم من ابنتها أكبر عائق في علاقة "عزيزة" بابن عمتها وحبيبها، حتى إن ارتداء خاتم الخطوبة محرمٌ على "عزيزة" مادامت في حضرة أمها!

"أمي عشان فقدت راجلها معايزانيش أتهنى براجلي، ولو شافت منه شوية حنية عليا ولا مني شوية دلال تشتمني شتيمة وسخة وكنّها مش هي اللي مربياني وعارفاني. حتى يوم قراية فاتحتي كانت كنّها بتعزيني، وتعايرني بفقره...وهو فعلا فقير لكن رجيل ودايما يقوللي أنا شاريكي يا بت.و أنا شارياه "

وكلما زادت الأم في قسوتها على ابنتها، تأكدت لعزيزة خطتها المستقبلية: ستنجب بنات لتسعدهن! ستقف معهن في وش الريح و "تبيع هدومها" كما قالت كي تعلمهن "كنّي حاروي عطشي للحنان في حنيتي عليهم".

<u>"الشكيوي"...الجبل الذي إن انشق، ملأ الأرض ذهبا!</u>

جنح حديث "عزيزة" في بعض مواضعه إلى الخرافات والموروثات التي تشكل بعضها وجدانها كما الحال مع الكثير من فتيات الصعيد، ومن بين تلك الموروثات هناك حكاية جبل "الشكيوي" العجيبة! فهذا الجبل دونا عن كل جبال الأرض، منغلق على كنز ذهبي لا أول له ولا آخر! حتى إن عجائز البلدة يقلن إنه يوم ينفتح عن كنوزه المخبوءة، سيظل يغترف منه القاصي والداني ولن يفرغ ولا حتى لحين يصل الماشون من شمال مصر إلى جنوبها أياما وليالي على أقدامهم ليغترفوا من خيره بدورهم! وزيادة على هذا، فالكل يعرف أن افتتاح بطن هذا الجبل سيكون إحدى علامات القيامة!

"ماتستغربيش الناس ياما بتصدق!"

أما عن حكايات اللقايا، فهذه لا تنتهي في الصعيد! وتذكر "عزيزة" حكاية البيت الجبلي الصغير في بلدتها، وهو البيت الذي قيل إنه بُني على مقبرة فرعونية عُيّن عليها حارس شديد. وكانت المرأة التي تعيش في البيت الجبلي مع زوجها تربي الدواجن، وما أن بدأ الزوجان يفكران في حفر أرضية البيت واستخراج الكنز الخبيء حتى بدأت الحوادث الغريبة!

"بقت المَرَة كل يوم في الصبح تلاقي فروجة مدبوحة ومتكفنة زي كفان الفراعنة! لما قصدوا العارفين والمشايخ قالولهم المقبرة اللي تحت البيت حارسها جني شديد، وبيحذركم من محاولة فتح المقبرة والا حيكون مصيركم زي الفراريج!"

لكن الرجل صاحب البيت الجبلي، كما استكملت "عزيزة" الحكاية، لم يتمالك رغبته في الثراء، فأخذ يحفر أرضية بيته بمساعدة أخيه حتى سمع رنّة الطورية (الفأس) على جسم صلب! ومع رنّة الطورية، توقف قلب شقيقه وفارق الحياة...لم يلتفت الأخ للرسالة التحذيرية التي تمثلت في موت أخيه مع رنات الطورية الأولى، وبعد "أربعين" شقيقه عاود الحفر فلاقى المصير الغريب الذي يتحاكى به الجميع!

"اتحول لكلب! من ساعتها بقى يمشي على ايديه ورجليه ويلحس الأرض كالكلاب...أنا شفته بنفسي!"

ولم تخلُ طبعا حكايات "عزيزة" من الرجل الذي تزوج الجنية التي تسكن أرضه، وحين استسلم لضغوط أسرته وتزوج من إنسية قتلته الجنية انتقاما في صباحيته!

لكن يظل ألطف ما قالت "عزيزة" بصوتها المرح المحبب إلى النفس، هي حكايات الفأل الحسن وما يُظن أنه يجلب الخير، والفأل السيء وما يجلب الشؤم:

"شوفي...عندينا العروسة لما تاجي تدخل بيت جوزها، نفرشلها فلوس تحت مرتبة سرير الدخلة، قال عشان أختها تتجوز وراها! واللي يجيب بقرة يرمي في وشها حفنة دقيق، قال عشان تبقى بخيتة...ولو البقرة اتبولت تبقى هي بقرة بخيتة مانبعهاش دي ولو بمال الدنيا...ولو البيت فيه عش عنكبوت يبقى البيت قال عايز يغير اصحابه...ودة فال وحيش...لازم نشيله والا يقلعنا من البيت...ولو كنستي البيت، اوعي تطلعي التراب من جوة البيت لبرة على باب البيت...دة يجيب الفقر...الكنيس يبقى من برة لجوة!"

وتختم "عزيزة" حكايتها معي داعية راجية متمنية أن يُتم الله زيجتها كي تكون لها حياة أخرى غير تلك الكابية التي تحياها، تدعو ثم تدندن معي على الهاتف وبصوت هامس إحدى أغنيات الأفراح الصعيدية التي تتمنى أن تسمعها قريبا في زفافها على حبيبها "الأقرع":

وخدناها خدناها

خدناها بسبعة ونص

وأبوها نايم عالحُص

ومين نقاهالك؟

نقاهالي عمي

حلوة تروق دمي

ثم تضحك عزيزة طالبة الخير لكل ذي رجاء.

حكاية "راضية"... المُعيّرة بـأم الإنـاث!

لم تقبل "راضية" أن تجالسني بنفسها وتسرد لي عن حياتها، فقد خشيت أن تجلب العار على عائلتها وقبيلتها مدى الحياة، وقد باحت بأسرار بيتها ورَجُلها...لكنها لم تمانع في أن تنقل لي جارة لها وصديقة الحكاية كوسيطة أمينة، قائلة لها **"انتي عارفة الحكاية كلها احكيها عني...لكن أنا ماقدراش أتكلم ويبقى وشي معروف للست عاد"!**

قالت الجارة الوسيطة إنها عاشت مع جارتها وصديقتها "راضية" حكايتها بالكامل، ولازالت تتدخل من حين إلى حين كطرف حين تعصف عواصف المشاكل الزوجية ببيت "راضية" مؤكدة على تفويض صاحبة الرواية ومتعهدة بأمانة النقل.

سألتُ "الجارة" عن وصف "راضية" فقالت إنها بيضاء ذات وجه مستدير وعينين مستديرتين "كيه القِـرش"!

"راضية" هي الابنة الكُبرى لأبيها، وكانت متفوقة في دراستها، وبرغم أنها من جميلات قريتها ومن أولئك الفتيات اللاتي كان يتهافت عليها طلاب الزواج، غير أنها كانت متعلقة على غير المألوف بالتعلم، فحصّلتْ مجموعا جيدا في المرحلة الإعدادية أهلها للالتحاق بالمدرسة الثانوية، وكانت فرحتها طاغية...كان ذلك إلى أن جاء اليوم الذي أجبرت فيه على ترك المدرسة قهرا ليزوجها أبوها قسرا لابن عمها.

"ود عم "راضية" كان أكبر منها بـ 35 سنة! كان متجوز مَرة أولى خلف منها سبع ولاد...السبعة ماتوا لسبب مجهول قبل ما الواحد منهم يتم العام...السابع منهم كان "خُنصُر دكر" (خُنثى أميل إلى الذكورة) ودة كمان مات...الراجل شاور أهل البلد والكل قال له مَرَتك فقر...خدلك بت ورور تجيبلك عيال يعيشوا"!

ووفقا للجارة الوسيطة، فإنه لا يوجد حيلة في عمر الطفل الذي يجيء أجله...الحيل كثيرة حين تعجز المرأة عن الحمل، كأن يُرسل صبي صغير إلى إحدى قبور الفراعين ليأتي بجثة ملكية لطفل محنط ومُكفّن بكفان الكتان كي تعبر من فوقه العاقر مرات عدة ليحدث الحمل!

لكن أن تُطيل أم عمر مولودها الذي أتت ساعته، فهذا مما لم يُحط به بنو آدم خبرا، وإلا فإن أيا مما يُقترح في هذا الصدد لن يعدو بحسب الجارة الوسيطة إلا أن يكون "خرافة وتدخل في أقدار الله"

لم يكن من بد إذن من انتقاء عروس "ورور" لتناسب الغرض، ووقع الاختيار على ابنة عمه "راضية" التي يبدو أنها كانت "ورور" بما يكفي في نظره، حتى إنه لم يعتد برفضها الصريح للزواج منه، خاصة بعد أن أغراها بالمصاغ والحلي الذهبية الوافدة من الخليج، بل إنه اعتبر أن في رفضها العنيد إهانة تستلزم كسر أنفها، فحرض أباها وأمها الذين كانا مرحبين بالزيجة على ترويضها كيفما اتفق!

"لما البنية رفضت الجيزة (الزيجة) قام أبوها وأمها "صخصخوها" و"مرضغوها" في تراب البلد (سحلوها) وضربوها عشان تتجوزه...وفي الآخر انكسرتلهم واتجوزت غصب"

وكانت سعادة الرجل غامرة حين استدارت بطن "راضية" حملا، لكن الفرحة لم تكتمل حين بُشّر بأول أنثى! أتبعتها الأقدار الساخرة بأنثى ثانية، وثالثة، ثم رابعة وخامسة حتى سبع بنات! ولعل ما زاد من غيظه أن أيا من بناته من "راضية لم تمت لأي سبب غامض كأبنائه من الزوجة الأولى الذين كانوا يموتون صبيا تلو الآخر!

بدا الأمر للرجل "أبي البنات" كما لو كان هناك مؤامرةٌ ما تُحاك ضده هو بالذات! وإلا فما معنى أن يموت أبناؤه الذكور (وحتى أنصاف الذكور) واحدا تلو الآخر دون سبب معلوم لطبيب ولا دجال، في حين تعيش البنات السبع وتزدهرن وتملأن الحياة أنوثة صاخبة! ولم يكن من مفر من أن يُزيح الأب المغتاظ غضبه على الحلقة الأضعف والتي تبدو له متواطئة مع القدر ضده..."راضية".

"لما ينادي عليها هي أو أي بت من بناتها يقول يا "بت"...مايقولش اسم واحدة فيهم أبدا..كنّه بينكرهم أو بينفيهم من حياته...لما حمارته حبلت جابت دحش (جحش) دكر ... الدحش دة اتولد مع بته الوسطانية، قام عاير مَرَته وقالها: يعني ما حصلتيش الحمارة يا مَرَة يا ناقصة؟ حتى الحمارة جابت دحش دكر وانتي عمالة تعبي وتجيبي في بت ورا بت!"

أما حين كانت تنوه إعلانات تنظيم الأسرة عن مسئولية الرجل عن نوع نوع الجنين ذكرا كانأم أنثى، كان يغلق "ابو البنات" التلفزيون!

وفي رمضان، وحين كان بناته تتجمعن على مائدة الإفطار في رمضان وقد نهدت صدورهن وملأن الأجواء ضحكا وهمسا ولعبا "بناتي" محببا إلى النفس، كن يذكرنه بالولد المفقود تلو الولد، وبالزوجة المتواطئة مع الأنوثة ضده، فكان ينهرها ثم ينهرهن.

"كانت تاجينا باكية في كل يوم رمضان عشان كان يبص فيهم عالفطار ويقول: كلكو بنات كدامي؟ مافيش واد يبل ريقي؟ اتسمموا خسارة فيكو اللقمة".

ولأنه لم يحبب كل هؤلاء البنات اللاتي يتعلقن برقبته ويكبّلنه إلى الأبد، فما أن تبلغ إحداهن حتى يبادر الأب بتزويجها لمن يراه مناسبا، فزوج الكبرى لولد أخيه الذي لم يردها (من قال إن النساء وحدهن هن من يُجبرن على الزواج؟! الرجال هناك أيضا يعرفون القهر!) بدعوى حفظ الميراث، فتعلقت الابنة الكبرى بالعريس الذي شعر طيلة الوقت أنها من ألوان قهر الحياة له فعنّفها وأساء معاملتها.

ثم زوّج الثانية لفتىً أمُه هي سيدة داره وقراره، تؤمن بذبح القط للعروس من ليلة زفافها وأنه "اكسر للبت ضلع" كي تنصلح أحوالها، فزاد العريس في ضربها وإهانتها حتى "حردت" أي عادت غاضبة مغاضبة إلى بيت أبيها بعد أسبوع من عرسها، وهو ما عوقبت عليه بأن حُرمت من نيل طلبها الطلاق بل، وإمعانا في العقاب، تزوج عريسها بإيعاز من أمه بعروس أخرى خلال أسابيع فقط من فرارها لبيت أبيها!

الابنة الثالثه لأبي البنات، والتي كانت تعيش قصة حب حيية خجلة مع ابن خالتها، زوجها أبوها قسرا لابن أخيه الثاني حفظا للورث، وجاء دور الرابعة فزوجها بقرار فردي كذلك لابن أخيه الأصغر...وتلك الرابعة كانت أتعس حظا من أخواتها السابقات، فإضافة للزواج القسري اكتشفت الأسرة أنها عاقر، فلم يكن لها أن الضرب والإهانة "عقوبة" لها على جدبها وقلة خصوبتها!

أما خامسة البنات فهذه هي الوحيدة من بين البنات السبع التي تزوجت من تحب من أبناء عمومتها، فلا هي خرجت عن طوع الأب وفرطت في الورث، ولا هي تزوجت قسرا!

هكذا طالت اللعنة أربعا من بنات "راضية" أمام عينيها الباكيتين صمتا، ولا تزال الابنتان السادسة والسابعة في انتظار "العدل"!

"وياريت اكتفى على كدة...ألا الراجل العايب راح يدور على عروسة تالتة تجيبله الـوِلْد! قام قال آخد أخت "راضية" عليها! بس لما شار شيخ الجامع قاله حرام تجمع بين الأختين! و "راضية" لسة عايشة معاه...تاجي تشتكيلنا مر الشكوى كل كام يوم من قساوته وجفاه عليها وعلى بناته...حتى الخَـلَــق (الملابس) ماراضيش يجيبلهم...ولما نقولها اتطلقي يا "راضية" تقول أنا عندي بنات و أهو راجل في البيت ساترنا ما يخليش كلب يدخل عليا أنا وبناتي!"

إلى هنا أنهت الجارة الوسيطة حكاية "راضية"، فما أن هممتُ بالانصراف حتى قالت: "عندي حكاية تانية...أنا شاهدة عليها من صُغري...حكاية "شهد"...أحكيهالك؟!"

حكاية "شهد"...برنسيسة دار العمدة!

"شهد" غائبة عن الوجود منذ زمان، ولو أنها حية تُرزق الآن، فهي سبعينية تخطو نحو ثمانينها... شهدت الجارة الراوية حكاية "شهد" في طفولتها ولا تنسى تلك المرأة البيضاء فارعة الطول ذات الخلاخيل الفضية "المدملكة" والتي ينضح وجهها بالدموية والصحة والجمال...

"شهد كانت حلبية...من الغجر...مش مأصلة يعني، وأفكـرْها صبي (أتذكرها جيدا) كانت عينيها واسعة وعسلية وعفية وليها سيقان حلوة وملفوفة! كانت دلالة تاجي عندينا تبيع لامي المَطوي (القماش الخام)، إشي حراير على باطستة على "زقزق رقص" (نوع قماش تقليدي) ومعاها الترفيلة والدرابية...واللي كانت تلبس الدرابية دي كانت تبقى بنت العمدة! وأنا أمي في شبابها كانت نزيهة تشتري من "شهد" قزايز الفايح (زجاجات العطر) زي السكاريه وست الحبايب وأنوثة والكالونيا"

وتروي الجارة الراوية كيف أن "شهد" كانت تأتي حاملة "مشنة" جريد وقد فرشت عليها الأقمشة التي تأتي بها من أنحاء الصعيد المختلفة، وإذا كانت تبيع أقمشتها لعروس مقبلة على الزواج، فإنها كانت تدور بمشنة الأقمشة وقد نثرت عليها "الحلاوة" (البونبون) والسوداني والكراملة والملبن، لتسير بالمشنة المميزة هنا وهناك وسط موكب من الدلالات المزغردات لترى باقي نسوة القرية

أقمشة العروس، وقد تحمل امرأة أو اثنتان في الموكب نحاس العروس كذلك، من أباريق وأواني كي تشهد القرية والقرى المجاورة ما ظفرت به العروس من جهاز نحاسي ثمين!

كانت شهد تغيب أحيانا فلا تسأل النسوة كثيرا عن أين ومتى، لكنهن يبقين في انتظار الدلالة الحلبية الجميلة حين تأتي بالبهجة النسائية المعطرة محمولة على مشنتها الجريد.

"في مرة غابت "شهد" وطولت...سألتها أمي كنتي فين يا شهد؟ وراجعة مورّدة وحليانة؟ فقالت كان حاجرني عمدة البلد اللي جنبيكم ...أصله اعتبرني ملك يمينه"!

و"الحَجْر" وفقا للراوية هو تقليد كان يتبعه بعض العُمد في الصعيد، وقد كان الرجل الحاجر يتحفظ على امرأة بعينها أياما أو أسابيع طالت أو قصرت في جناحه الخاص لتؤدي، برضاء منها، دور الجارية أو المحظية! وكان عمدة القرية الذي قرر أن يحجر "شهد" من حين لآخر متزوجا من ثلاث نساء تعشن جميعا تحت سقف واحد في بيته الكبير، ومعهن أطفال لا يعرف أبوهم عددهم!

وكانت "شهد" سعيدة بتلك الحالة، ففي فترة "الحجر" كان العمدة يلزم نساءه وأبناءه بخدمة ضيفته، فتأكل الشهي من الطعام الذي لم تعتده في أيامها الأخرى، وتنام على "السرير أبو درابية" وهو ترف لم تكن لتملكه هي الدلالة البسيطة.

"ولما كنا نقولها احكيلنا يا خالة "شهد" كانت تقول نسوان العمدة بالأمر يحطوا كدامي المحمر والمشمر وأنا بس أنزل من السرير أبو درابية آكل و"اغسل ايدك يا ضيف" زي ما بيقول المثل! والآخر ألم صرتي وأروح...لما بابقى في الحجر بابقى أنا البرنسيسة"!

وحين سألتُ الراويةَ عن أخلاقية هذا المشهد الغريب، خلعت عنه أي إطار ديني أو أخلاقي، رابطة المشهد كله بنفوذ العمودية:

"العمدة كان ليه طلالة ودلالة عالبلد كلها عاد...محدش يقدر يقوله لا...من حريم لغفر كله يقول نعم وحاضر...ماسمعتيش أم كلثوم لما قالت لعبد الوهاب عيشة الفلاح إيه دي اللي يامحلاها أذا كان الفلاح من دول يشقى ويتعب وياجي العمدة يلحس عالجاهز؟!"

ثم جاء اليوم الذي احتجبت فيه "شهد" عن القرية بالكامل...ربما هجرت القرية بالكامل...وربما حجرها العمدة للأبد...وربما لم يعد يسمح لها التقدم في العمر لا بالدلالة في بيوت النساء ولا بحجر العُمَد!

حكاية "مهجة"...التي كتبتْ الحب على ورق ملون!

مهجة ثلاثينية ذاتُ حسن جنوبي من ذلك الذي تميزه السُمرة واتساع العينين وعسليتهما، مع جسد ممتلىء بض التفصيلات، وإن كانت توصف بين نديداتها بصاحبة "الحس المجعر"، أي الصوت الغليظ!

تسترجع معي مهجة قصة حبها التي تأججت في التسعينيات، أي حين كانت مهجة طالبة في المدرسة الإعدادية! في تلك الأيام، لم يكن للحب وسائط ذكية ولا إلكترونية، فكانت الخطابات الملتهبة على الأوراق المسطّرة والملوّنة هي الوسيط!

"من أنا وفي إعدادي حبيت جاري وحبني....كانت قصة حب حلوة قوي قوي قوي...كان يبعتلي جوابات على ورق ملون: إشي أصفر وإشي بمبي وعليه عصافير وزهور، وكان يعطر الجوابات والظروف بالريحة بتاعته ..كنت أخد الجوابات وأدسها في قلب مرتبة السرير، وسط القطن عشان أمي ما توعاش للجوابات...أصل أمي مرة صعيبة ونجاجة (كثيرة الكلام)"

كان روتين مهجة محفوظا ويكاد يطابق روتين الكثير من بنات قريتها: تصحو باكرا "من الزرزور"، أي مع صوت العصفور، تنظف أرضية البيت والفناء الخارجي ثم تطعم الدواجن رفقة أمها، لأن أمها امرأة ذات يد "مَرية" كما قالت، أي لا يموت الطير الذي تطعمه بيدها! ثم يأتي وقت استحمام العصرية والتعطر والتزين قبل التربص بالجارالحبيب على عتبة البيت.

"بيتنا فيه حوش كبير وأوض كَتيرة والسقف عالي ومعمول من فلوق النخيل...وعندينا في حوش البيت سجر (شجر) مانجة وجوافة من جدود لجدود مزروع في قلب البيت...أنا بقى أياميها بعد ما أكنس البيت كله عاد كنت آجي في العصرية أتسبح وأتفيح (أستحم و أتعطر) وأحط زبدة الكاكاو الحمرا وأوقف على عتبة بيتنا...أو أوقف على سطح البيت أفنس على حبيبي (أطل عليه) لحد ما يغمزلي أنزل أقعد على عتبة البيت...ونفضل نبص في بعض ونضحك لبعض لحد المغرب! أخواته البنات كانوا عارفين وأمه كمان...وكانت "مسترغضة" الأمر دة (لها فيه غرض و رغبة)...ولما أمي كانت توعالي وأنا بالاغيه كانت تكتلني (تضربني)"

كان لحبيب مهجة 15 أخ وأخت، كلهم أبناء لرجل أكثر فقرا من أن يُرضي حاله طموح أم مهجة التي تدرك أن ابنتها واحدة من أجمل فتيات القرية، وأنها قادرة بابنتها على اصطياد رجل ثري من داخل القرية أو من خارجها ليكون يد سخاء تعين الأسرة على معيشتها...وإمعانا في تعقيد الأمر، كان حبيب مهجة متعثرا في دراسته.

"السنين تعدي وأنا رايداه وهو رايدني...ونجح في الثانوي ودخل الكلية ...في أول سنة في الكلية جات جارتنا رامحة تقوللي حبيبك نجح...يومها من فرحتي حليت خشمها بكيس مانجة من السجرة اللي عندينا في الحوش...بعدها عرفت انه "زقط" (رسب) ... أمي عايرتني بيه كَدّ كده: بقى هو دة العويل اللي انتي رايداه؟"

وزاد القدر على فقر أسرته وتعثره في الدراسة أن زج به في مشهد أليم يمرض فيه الأب ثم يموت سريعا تاركا الإخوة الخمسة عشر في رقبة الفتى الذي لم يكن يملك إلا تعثره في دراسته وحبه لمهجته الآملة في زواجهما منذ سنوات...

"كان لازم يسافر بحري عشان يلاقي شغل يوكل منه أمه واخواته...ومن بحري سافر عالسعودية...سافر وسابني..وقتها اتقدملي ود عمي أكبر مني بعشرين سنة ومكانش رايدني حتى...هم قالوله تاخد البيضا ولا السمرا قال السمرا ..غصبوني عليه...أمي كتلتني وقطعت شعري عشان أرضى بالجيزة (الزيجة) لحد ما هجيت من البيت وطفشت على عمة ليا في بلد تاني...مَرَة كبيرة ...قلتلها غيتيني يا عمة حيجوزوني غصبانية...قالت يابتي دة ود عمك و"لحمتك إن شوتك ما تاكلِكش".. يعني ود عمي حتى لو آذاني عمره ما حيرميني في الشارع وحيبقى ستري!"

حاولتْ مهجة الانتحار بأن سكبت على جسدها الكيروسين وهمت بإشعال النار بنفسها لولا أن تدخلت العمة المسنة لتنقذها من الحريق...لكنها لم تقدر على إنقاذها من المصير المُقدّر لها، فوقفت موقف المتفرج على إتمام إجراءات العُرس التعس.

"وانكتب كتابي واتزفيت على ود عمي بدموع عينيا"

لكن أم مهجة لم تكن تبالي كثيرا بدموع ابنتها، كانت تكفيها وتزيد الهدايا التي أتى بها العريس من ملابس وأقمشة وعطور ومصوغات ذهبية لتترك ابنتها تلاقي المُقدّر لها في حياتها الجديدة.

"بعد الجواز عرفت ان حياته كلها حشيش وخمرة...تفتحي ادراجه تلاقيها متروسة (ممتلئة) ورق بفرة...والتلاجة مليانة قزازيز خمرة...من أول يوم كان بضرُبني...ريحته وحيشة وطبعه وحيش وأكال...ياكل ياكل ياكل...حتى في الفطار ياكل طير ولحم...ولما أشتكي لامي تقول أهم حاجة ان مش جيعانة! مكانش فيه حاجة في حياتي حلوة غير ذكرى حبيبي"

وبرغم الكراهية أنجبت مهجة من زوجها طفلا أول ثم طفلا ثانيا ثم طفلة شاء لها القدر ولمهجة أن تكون عاجزة عن الحركة والكلام، فقضت مهجة أياما وليالي طويلة منشغلة بطفلتها ذات الظروف الخاصة بعد أن فقدت أي أمل في أن تكون لها حياة أخرى.

"بس لما كان ياجي حبيبي من السعودية أجازات كنت أروح أقابله...كان هو زي ما هو...لسة فتى ماسبقتلوش الزيجة ولسّاه جميل وبهي...أنا بس اللي كبرت وجسمي اتغير وراح جمالي...كنت أبص فيه أنسى همومي وأنسى حتى جوزي وعيالي...ولما كان ياجي يزور أمي كنت أرمح عليه وأزُبّه (احتضنه) زي ما كنا عيال تمام...ولما يسافر تاني ياخد الدنيا معاه وأرجع أنا لجوزي يضرب فيا وهو سكران ومحشش"

وقررتْ مهجة أن تستقل بحياتها وأبنائها بعيدا من أمها ومن ذاك الرجل، وهو القرار الذي لا تجروء على اتخاذه كثيرات، فاستأجرت شقة صغيرة واصطحبت أبناءها لتعيش معهم ومع ذكريات حبيبها الغائب...ظلت مهجة على هذا الوضع أربع سنوات، ما بين بيت أبيها وشقتها المستأجرة ومحاولات منهكة للاحتفاظ بالصبيين اللذين حاول الزوج، بما يخالف القانون، ضمهما إلى حضانته بالقوة. لكن ما لبث أن عاد الزوج متوددا محاولا استرضاء مهجة ولم شمل الأسرة، فعادت إليه بعد إلحاح منه وضغط من أمها لتعود إلى نفس دائرة التعاسة المستحكمة.

"وجبت عيل رابع! في الوقت دة حبيبي رجع من السعودية وكان إيه... ربنا فتح عليه ومعاه خير كتير...قاللي يا مهجة اختاريلي عروسة! ماهو كان لازم يتجوز كمان...اخترتله تلات عرايس التلاتة وحشين! قال لا ما رايدش..وقاللي آخد فلانة بت فلان...فلانة دي بقى من بيت معروف ان نسوانه حلوين وناصحين واللي بيتجوز منهم مايقدرش يفارقهم! رفضت وقلت الا دي! الا البيت دة! كنت عارفة انه لو خد من البيت دة حينساني وأرجع أغطُس في عيشتي السودا...وفعلا

اتجوز البت اللي كان رايدها وأخدها وسافروا...وسابوني لوحدي...وعرفت بعدها انه جاب عيل حلو نسخة منه...ربنا يسعده"

واعترفت مهجة أنها في تلك الفترة تخطبتْ كثيرا في علاقات مبتسرة مع رجال مختلفين في محيطها، وتبعثر حديث تلك العلاقات هنا وهناك حتى وصل إلى شقيقها الذي هدد بذبحها وتلقي العزاء فيها إن حامت حولها مثل هذه الشبهات مرة أخرى. وانصاعت مهجة خاصة بعد أن داخل المرض زوجها، مدركة أنه لم يعد لها إلا هذه الحياة مع هذا الرجل وهؤلاء الصغار منه ...وإلى الأبد.

"العيد اللي فات كب الجاز على هدومي وحرقهالي لانه مكانش قادر يقوم على حيله يضرُبني! وأول ما اتحسن شوية قام ضربني! من فَحْمتي (غيظي) قمت حرقت علاجاته وروشتاته! وهددت اخواته اني حكتله (أقتله) لو ماطلقنيش...ولا هو طلقني ولا أنا كتلته وأديني عايشة! طب أروح فين؟ ماليش غير جوزي وعيالي! حتى الحب والفرحة كبرت عليهم لدرجة اني لما أشوف حبيبي دلوكتي ولا أحس بشي...خلاص جحدت"

وصمتت مهجة...

حكاية "محروسة"... الهاربة من العنوسة إلى التعاسة

ليست محروسة جميلة!

امرأة شابة خشنة نحيلة الجسد طويلة القامة ذات عينين ضيقتين للغاية وجسد رجولي ولفتات غير ودودة.

لم ترحب محروسة كثيرا بالحديث إلي، بل إنها كانت تهرب بعينيها من عيني طوال جلستنا المتوترة على الكنبة الاسطنبوللي العالية ذات الفرش المزركش المليء بأوراق الشجر الذهبية والكرانيش على الأطراف...حتى إنني استغرقت وقتا طويلا قبل أن أكتشف أن بعينيها حَوَلا بسيطا يصعب أن تدركه مع ضيق عينيها.

في جلباب أسود وبربطة رأس منزلية مرتجلة جلست محروسة تحكي...

عرفتُ من محروسة أنها يتيمة الأم منذ طفولتها وأن لديها ثلاث شقيقات، تزوجت منهما اثنتان وبقيت محروسة والشقيقة الثالثة ،وهي أكبر من محروسة بسنوات قليلة، في انتظار "الستر"...

"كنت وقتها في العشرينات وأختي داخلة عالتلاتين ولافيش مين يقول يا جواز...لما بقت أختي تلاتين ربنا بعتلها واحد منعرفش عنه لا أصله ولا فصله...غريب مش من بلدنا، واحنا مانحبش جواز الأغراب...كمان كان أصغر منها بأربع سنين وخفنا يعايرها بسنها...لكن في الآخر اضطرينا

نجوزهم! مكانش فيه غيره والبت لازم تتجوز... وعشان نعمل للجوازة قيمة في البلد عملنالهم فرح خمس ليالي، عزايم وزمر والخيالة ترقص...وبكدة مابقاش غيري في رقبة أبويا"

كانت محروسة متعلقة بالأمل في أن تظفر بزيجة لائقة أكثرمن تلك التي منيت بها شقيقتها، خاصة وأنها ما أن أنهت تعليمها الإعدادي حتى سعت كل مسعى كي تجد لنفسها وظيفة ميري بأي مؤسسة تابعة لأي وزارة وبأي مسمى! فالوظيفة الميري ذات المُرتب الشهري الثابت والمعاش في نهاية الخدمة هي أشياء تزيد أي فتاة بريقا في عيني الخُطاب! خاصة إذا كانت أقل حظا من الجمال والأنوثة كمحروسة ...

"واشتغلت في التفتيش الزراعي ومسكت مُرتب لأول مرة في حياتي...صحيح مُرتب مايغنيش ولا يرفع القـِل لكن بقيت موظفة في الحَكومة..قيمة برضو في بلدنا"

لكن السنوات مرّت ولم يتقدم الخُطاب والطُلاب المتهافتون الذين انتظرتهم محروسة أطول من المتوقع...تُدرك محروسة تماما أنها ليست أخاذة الجمال وقد هيّأت نفسها بالكامل لتقديم التنازلات كي تظفر بالزواج...فالوظيفة في عُرفها وعُرف من حولها مهما علا شأنها ومكسبها لا تُغني المرأة عن أن تكون في كنف رجل...لكنه لم يخطر ببال محروسة أن تنازلاتها ستصل إلى ما وصلت إليه...

"خفت أعنس زي أختي الكبيرة، وكنت زيها داخلة عالتلاتين...وكل البنات الي حواليا اتجوزوا وخلفوا من سنين...حسيت بوحدة وان ماليش مستقبل ولا حياة...والنسوان يبصوا فيا ويتصعبّوا (يُظهروا الشفقة) ...عشان كدة لما اتقدملي جدع من بلد جنبينا وافقنا...أبويا وافق وأنا وافقت من غير حتى ما نقعد مع الجدع..قالوا من بيت فلان قلنا ماشي...أيام وكنت على ذمته... ورحت معاه بيت أبوه..."

في بيت زوجيتها ومنذ أيامها الأولى معه عرفتْ محروسة أن عريسها "متهبّل " كما قالت.....حين استوضحت منها أكثر عن معنى "متهبل" قالت إن الرجل كان مشوشا عقليا وكانت تنتابه نوبات جنون مؤقت فيقوم في الليل، مثلا، لخنقها دون مبرر ولا مقدمات! كان الزوج يعيش في عالم مواز...يتصرف كالعُقلاء إلى أن يُفلت منه زمام العقل فيبدأ في الإتيان بتصرفات لا توصف إلا بالجنون الكامل!

"وابتديت اقنعه يتعالج... بقينا نروح لدكتورفي بلد تانية بيننا وبينه أكتر من ساعتين وياخد علاجات عشان الأعصاب...فيهدى شوية...ولما يبطل الدوا يجيله دور الجنان تاني! أصل العلاجات كانت بتخليه يعني لامؤاخذة يبول في هدومه ومايقدرش يسيطر على روحه... مكانش عندي مشكلة أكمل معاه على كدة...وفعلا فضلت معاه عشر سنين، حاولت أحبل منه كتير ماحصلش نصيب...العلاجات كانت بتخليه مايقدرش عالمعاشرة...فرضيت بقسمتي وكملت معاه...لكن المشكلة بدأت لما بدأ ابو جوزي يحاول معايا!"

كان أبو الزوج يعلم أن ابنه "متهبّل" وأنه ملهيٌ في مرضه وعلاجه ومحاولاته المتكررة البائسة لمعاشرة زوجته والإتيان منها بطفل، فبدت الزوجة متواضعة الجمال في عينيه أكثر إغراء من سواها في بؤسها الذي وضعها في قبضته على غير ترتيب منها ولا رغبة وسولت له نفسه أن يحاول التلهي بجسدها.

"كان يقوللي: والنبي انتي خسارة في ابني! وفضلنا عالحال دة يحاول معايا وأصده لحد ما فاض بيا ورفعت قضية واتطلقت ورجعت بيت أبويا...بعد ما أخدت الحكم كان ييجي طليقي تحت شباك أوضتي ويفضل ينادي عليا طول الليل...جرسني وفرّج عليا البلد...كان يصعب عليا ساعات لكن أنا كنت خلاص قررت اني مش ممكن أرجعله هو وأبوه تاني"

وتشاغلت محروسة عن انتكاستها في حياتها الخاصة بأن انخرطت في العمل وبدأت تقضي وقتا أطول في التواصل مع زملائها دون أن يكون لديها أمل في أن تتغير حياتها...فبلادها مليئة بالعذراوات ممن هن أجمل منها وأصغر سنا وأقل ثقلا بالذكريات التعيسة ومازلن ينتظرن الحب والزواج، فلماذا قد يتركهن النصيب ليصيبها هي؟

لكن الأيام جاءت لمحروسة بما لم تكن تحسب له حساب..فقد خفق قلبها لرئيسها في العمل الذي لم تكن تعلم عن حياته الكثير ...كل ما تعلمه، كباقي زملاء العمل، أنه زوج منذ سنوات وأن الله لم يمن عليه بعد بالإنجاب.

"حبيته...وهو كمان حبني...معرفش ليه حبني...بس أهو نصيبي كدة...حبيته الحب اللي ماكنتش حتى أعرف اني ممكن أحبه...حبيته من غير ما أعرف أي حاجة عن حياته، وكان حبه كتير عليا وكنت فرحانة بيه..وقتها كنت حاسة اني ست زي باقي الستات...مش لازم ابقى بيضا وحلوة عشان أحب وأتحب يعني!"

وبعد فترة من العلاقة بينهما، عرفتْ محروسة سر حبيبها الصغير...السر الذي لا يكاد يعلم به أحد خارج جدران بيته...فالحبيب الذي جاء من وراء الأقدار ليلوّن حياتها بالبهجة عاجز جنسيا، يتستر بالزواج عن عجزه، وعن رفضه لتلقي العلاج الذي يخشى أن ينال من كبريائه وصورته كرجل في قرية صعيدية لا تستهين بأمور نقص الفحولة ولا تأخذها مأخذ الهزل...تسترٌ تواطأت فيه الزوجة التي ارتضت أن تسير ضد فطرتها كأنثى وأم محتملة كي تستر الرجل الذي ارتضت أن تشاركه الحياة.

"ورضيت...وليه لأ؟! قلت يا بت يا محروسة بوسة وحضن وارميهم تحت الحيط!"

لكن رضاء محروسة لم يشفع لها أمام القدر...والموت الذي اختار حبيبها دون سواه...فقد كان حبيب محروسة مصابا بمرض في قلبه، ومع الإهمال وأخطاء العلاج الشائعة في الصعيد تأخرت حالته في أيام قبل أن تأتي الأيام الأخيرة قبل الفراق المحتوم.

"ركبت معاه عربية الأسعاف من بلدنا اربع ساعات لحد ما وصلنا المستشفى...المستشفى اللي في بلدنا مافيهاش دكاترة زينين نروحلهم بالحالات الحرجة... على ما وصلنا المستشفى كان خلص...مات على صدري الله يرحمه...والله صدمتي فيه أكبر من كل الصدمات اللي أخدتها في حياتي...لكن أهيني عايشة...طب حعمل إيه؟"

وقامت محروسة من مجلسنا بوجه جامد، وتركتنا وحدنا على الكنبة الاسطنبوللي العالية: أنا و كراستي وقلمي وجهاز تسجيلي...

حكاية "مستورة"... حبيبة المساكين ومنتظرة العشق الذي لا يجيء!

"مستورة" تحب المساكين...والمساكين ينتظرون الخير بمرأى مستورة

تجوب "مستورة" أرجاء قريتها الجنوبية الفقيرة لتجمع الفضل والزيادة من أرجاء بيوت "الأكابر" لتعيد توزيعها على ذوي البيوت الخاوية إلا من دعاء الصالحين.

أول ما ستحكيه "مستورة" لك لن يكون عن أبيها الذي قهرها تزويجا وهي بعد طفلة مرتين، الأولى لرجل سادي منحرف المزاج، والثاني رجل ستيني لا منحها ذرية ولا حبا...لن يكون أول ما تحكي لك "مستورة" حكاية حلمها بالأمومة المؤجل إلى أن يقضي الله أمر، ولا حكاية رغبتها في الفرار من قبضة الأم والإخوة الذكور غلاظ القلوب، ولا خوفها من الرجال كل الرجال إلا رجل واحد في خيالها، سيأتي يوما لتعرف معه معنى الغرام!

بل إن "مستورة" ستبادرك بالحديث عن الفقر في بلادها...عن البيوت بلا سقوف، وعن العمليات التي تُجرى على العيون بمال الصدقات، وبتدبير منها، وعن النساء اللائي يبكين لأن أطفالهن يشتهون حلوى المولد والحال أضيق من تحصيل السمسمية والفولية في الموسم الطيب!

سيكون عليك، إن أردت لـ"مستورة" أن تفتح خزائن حكاياتها لك، أن تجالسها طويلا وأن تحاورها طويلا، لأن ما ستحكي ليس مما تحكي النساء ببساطة.

فـ "مستورة"، الجنوبية السمراء ذات القوام الممتلئ، والصوت المجروح بالكلام والانفعال، زُوّجت وهي بعدُ لم تبلغ! زُوجت رغما عن إرادتها وهي ابنة الأعوام الاثني عشر بعد أن قرر أبوها أن يمنحها لرجل ميسور لم يبدُ –وقتها- أنه يعيبه إلا كونه غريبا عن البلد لا يُعرف له أصلٌ ولا فصل ولا حسب ولا نسب.

"لو كنت قلت لأ كان أبويا دبحني...كان كتلني كتل...وأمي مكانتش تقدر توقف في وش أبويا واصل...وما يهمهاش غير سترتي...قالوا حتتجوزيه يعني حتتجوزيه...كنت عايزة أكمل تعليمي لكن أبويا قال ماعندناش علام وسلّمني للغريب...أمي كانت فرحانة بفستان فرحي ولا في بالها بكايا...كانت قاعدة جنبي وأنا بلبس العروسة تضحك وتزغرط وأنا مالية الدنيا بكا".

ولأن "العيب" و الـ "مايصحش" يطغى على الكثير من الحديث في الصعيد، فإن الأم لم تفتح مع طفلتها حديث "الليلة الأولى"...بل تركتها لتواجه المُقدّر لها في صمت متردد بين الخجل والجهل.

"لما جا يقرب مني خُفت منه...قلت دي حاجة عيب وغلط...واتمنّعت...فضل يضرُب فيا يضرُب فيا لحد ما غمرت (فقدت الوعي) وعاشرني وأنا غمرانة"

لم تكن هذه المرة الأخيرة التي يُخضع فيها الرجل الثلاثيني الغريب عن البلاد زوجته الطفلة قهرا، بل إن الرجل استمر في ممارساته العدوانية والشاذة عليها قهرا لأعوام أتت، في ظل صمت الأب وخضوع الطفلة التي انتُهكت طفولتها باسم "السُترة".

ولأن بعض الأقدار تُحاك بقدر مدهش من السنيمائية، فإن قهر الزوج لمستورة لم يقف عند هذا الحد وإلا لكان استمر زواجهما!

لكن مازاد على قدرتها على الصمت وفاض على قدرة أبيها على التجاوز كان ما أسمته "مستورة" بالـ "نشوز الجنسي" قاصدة ممارسة زوجها لعلاقات مثلية..ويبدو أن هذا هو حد الاحتمال، إن لم يكن أمام الأب بدٌ بعدها من تطليق ابنته ..أخيرا!

كانت "مستورة" آنذاك على أعتاب العشرين، فتاةً نصف متعلمة نصف آملة في حياة أكرم. لكن أباها لم يُمهلها طويلا قبل أن "يُستّرها" على طريقته للمرة الثانية..لكن العريس هذه المرة كان رجلا في خريف عمره، جاءها يحمل على كاهله أربعة وستين عاما!

"في الوقت دة أبويا الله يرحمه كان اتنين وستين سنة...يعني عريس كان أكبر من أبويا بسنتين!"

لم تدم الزيجة طويلا، فالرجل لم يكن يملك لعروسه إلا أنينه الطويل ليل نهار وشكواه المستمره من آلام العظام والتهابات المفاصل وأعراض ارتفاع ضغط الدم. لم يخش أبناءه أن تأتي "مستورة" بوريث جديد، فقد كانوا يعلمون كيف تهالك جسد الرجل حتى إنه لم يعد قادرا على منحها ذرية، لكنهم مع ذلك تحسبوا لدخولها هي نفسها شريكة في ميراث أبيهم فساعدوها على الطلاق منه.

"وماكنتش أقدر أتطلق لولا أبويا كان مات! لو كان عايش كان زماني لسة في عصمته...أو أرملته"

وكانت تلك بداية حب المساكين!

وكأن "مستورة" أحالت الحب الذي لم تعشه في أي من زيجتيها والقهر الذي عرفته وخبرتْه جيدا وحلاوة طفولتها التي لم تعشها إلى قدرة على التوحد مع ألم الفقر وهمّة لرفع الأقدار القاسية عن المحتاجين والمرضى المعوزين.

"اشتغلت في فرع جمعية (...) الخيرية في الصعيد...الفقر هنا شَديد واصل..شَديد لدرجة تخلي الواحدة تقلع غربال الخشا وتلف عالبيوت تطلب الخير من ناس الخير...الأول كنت أستحي ما أطلب من البيوت يساعدوا الغلابة بس بعد وقت بقى لازم أطلب...لما تاجيني مَرَة كبيرة حيروح نضرها عشان معهاش فلوس عملية العينين، يبقى مافيش غير اني أمد إيدي لأهل الخير عشان أساعدها...والناس بتساعد...اللي مش قادر يساعد بفلوس بيطلع من خَلَقات أهل بيته...واللي مش قادر على الخلقات بيطلع ان شالله إستِك (رباط شعر/توكة)"

تدور "مستورة" على البيوت تدعو الفتيات للتعاون معها، وتستجيب الفتيات في الغالب، فيخرجن بصحبتها لمقر الجميعة الخيرية فيتعاونّ جميعهن على فرز الملابس المستخدمة التي بذلها أهل الخير وغسلها وكيّها كي تكون لائقة بأن **"تقع في إيد ربنا قبل ما تقع في إيد العبد المحتاج"**

ولوهلة، تؤكد مستورة أنها وقفت حياتها راضية مرضية على الفقراء والمساكين، لكنك إذا عاودت السؤال عن حلمها ستعيد معك رسم حياة مختلفة...ولو قليلا!

"ساعات أقول أهج من البلد دي وأروح بلد تانية تعيش فيها النسوان غير عندينا هنا...هنا الراجل عايز المَرَة عشان نفسه بس...عشان مزاجه وذريته واسمه وصورته...مش عشان بيحبها...وأرجع وأقول ماليش غير هنا...ماعرفش بلاد تانية!وبعدين أنا لو هجيت اخواتي حيلوشوا عليا ويلقوني ويدبحوني! أقولك؟ أنا نَفسي أحب وأتحب...أكدب عليكي لو قلت غير

كدة...بس عايزة راجل ما يقوليش سيبي العمل الخيري وسيبي الفقرا..عايزاه يوْقف جنبي...ويديني عيال"

لكنها ما تلبث أن تطرد نظرة الحُلم من عينيها مسترجعة أشباح ماضيها جميعا...

"لكن فين الحب والمعشقة؟! أنا عارفة بختي...جوازتي الجاية حتبقى زي الجوازتين اللي فاتوا، غصب وقهر وتعس... قال وعلى رأي المثل: حطيت بختي عالمعدية، لقيته غراب أسود وله قطية (عُرف)"

حكاية الآنسة "صلاة"... التي خوطبت دوما بصيغة المذكر!

لم يتقبل أبو الآنسة "صلاة" (26 سنة- جامعية) حقيقة أن السماء لم تقدر له إنجاب الذكور! وكلما هدأت خواطره واستسلم لأقداره وتلهى عن الذكر المنشود ببناته الثلاث، هيجت أمه هوائجه من جديد وذكرته بأن سلساله سينقطع بموته وأنه ما من ولد يحمل اسمه.

هو الذي لم يكن أبدا كبير قبيلته ولا رجلا فاحش الثراء ولا أي شيء ليحتاج وريثا لشرف أو اسم أو ثروة، فقط كان موظفا بائسا بوزارة الزراعة! لكن انقطاع الاسم شيء يؤرق الملوك كما الصعاليك هنا...في الصعيد.

"احنا تلات بنات أنا أصغرهم...أم أبويا خايفة على ابنها البكري اللي هو أبويا لينقطع اسمه لأنه ماجابش ولد، حملته بالفكرة دي لحد ما ابتدا يعاملني على إني ابنه اللي ماخلفوش ...كان بيكلمني بصيغة المذكر ويقوللي: انت ولدي، انت دكر فاهم؟! وكان يبعتني أجيبله سجاير من الدكان في عز الليل وياخدني معاه نقعد عالقهوة وسط الرجالة...ولما أقوله يا بويا أنا شبه البنات شوف أنا شعري طويل ازاي، يقوللي: لأ انت راجل...راجل بشعر طويل!!"

ومنذ ذلك الحين و"صلاة" تلعب الكرة مع الصبيان في شارعهم الجنوبي الضيق، وتشاكس أبناء الجيران وتشاغبهم بل وتشتبك معهم بالأيدي إن تطلب الأمر، تماما كما لو كانت "دكر".

حتى حين حان وقت دخول الجامعة حيث تزدهر الأحلام وتتسع الآفاق، كان على **"صلاة"** أن تنصاع لرغبة أبيها الذي كان لايزال يراها "ولده" والذي أصر أن تلتحق بكلية التربية الرياضية علها تبني جسدا يتناسب مع الذكورة المرجوة فيها**!**

"في الثانوية العامة أمي مرضت مرض الموت، وستي (جدتي) كانت كمان مقعدة، وكان لازم حد يهتم بيهم، وأنا كنت الشخص دة لأن اخواتي البنات كانوا بيدرسوا في مدينة تانية... طبعا جبت مجموع ضعيف في الثانوية العامة وبدأت معاملتي في البيت على اني مشروع متعلم فاشل، والانطباع اتأكد لما أمي ماتت وأنا في السنة الأولى في الجامعة ومانجحتش"

وبضغط من الأهل، حولت "صلاة" أوراقها إلى كلية الخدمة الاجتماعية جامعة جنوب الوادي حيث لا تكاد ترى من نوافذ المبيت وقاعات المحاضرات إلا صحاري صفراء شاسعة ومحاولات جهيدة لهزيمة الصفار بالخضرة، فزادت عليها وحدتها واكتئابها خاصة أنه لم يكن لديها أمل في أن تعيش قصة من قصص الحب التي تقرأ عنها وتسمع...وكيف تعشق وتتدلل كالفتيات الحالمات هي المحسوبة على الصبيان من صغرها **"أحب ازاي وأنا من أولي حاسة نفسي ولد؟! وولد مش وسيم كمان!"**

سارت أيام "صلاة" متشابهة تحوطها صفرة الصحراء من حولها، وينهشها الإحساس بأنها تلك البائسة التي أنكر عليها الجميع أنوثتها إلى أن مرت ذات يوم في الحرم الجامعي بالوادي الجديد بفتى يتدرب مع زملائه على عرض مسرحي تؤديه الفرقة بنهاية العام... وقفت "صلاة" مشدوعة كالفتيات الصغار في الأزقة الريفية حين يجدن أنفسهن وجها لوجه مع "الأراجوز"**!** نفس الفرحة والفضول واللهفة والاندهاش، ولعل هذا المزيج من المشاعر التي تبدت ولابد على وجهها هو ما

دفع مخرج الفرقة ليعرض عليها الانضمام إلى النشاط الفني بالجامعة. وكانت بداية صفحة جديدة في حياة "صلاة" يوم أن انضمت إلى فرقة الفنون الشعبية بالجامعة.

عرفت، أخيرا، الفتاة التي خوطبت دوما بصيغة المذكر أنها أنثى! وأن لها جسدا فتيا غضا يمكنه أن يتمايل بنعومة على أنغام الموسيقى وأن يؤدي أدوار عرائس النيل والأميرات المخطوفات والفلاحات الصبوحات رقصا وتمايلا، وأن هذا الشعر الطويل الذي طالما ود أبوها لو نزعه عن رأسها حتى تكتمل صورة ذكورتها في عينيه، هذا الشعر يمكنه أن يترك حرا غزيرا ضاربا الهواء دون حرج. على الأقل لن يكون الحرج حرجها هي، أما الأسرة المحافظة ذات السمعة والاسم فقد تملكها ما يكفي من الإحساس بالحرج بل والعار من تفلت الابنة التي كانت حتى الأمس القريب تعويضا عن غياب الولد!

" مديرة مكتب الشباب والرياضة في الجامعة كانت ست ما بتخلفش واعتبرتني بنتها وهي اللي كانت بتقف لرفض عيلتي لمشاركتي في فرقة الرقص...في الفرقة كانت أول مرة حد يقوللي إن فيّ جمال يناسب دور معين في الاستعراض اللي بنأديه، أو إن جسمي مرن وجميل ويناسب الرقص على المزيكا الشعبية...لفيت مع الفرقة وجه قبلي وبحري وعرفت ناس كتير وكنت بانسى نفسي وأنا بارقص...المزيكا والرقص خدوني في عالم سحري مافيش حاجة كانت بترجعني منه غير ذكرى مشاهد أبويا وهو بيشتم أمي وبيهينها وبيعايرها بمرضها قبل ما تتوفى!"

<u>بحثا عن ولي العهد حامل الاسم والإرث...عشر زيجات قد لا تكفي!</u>

ربما لم يوصم أبو "صلاة" في وسطه بأنه "حبيب النساء" أو أن "عينه زايغة" أو شيء من هذا القبيل، لكنه قطعا كان معروفا بكثرة زيجاته التي تعدت العشر زيجات، ليس حبا في النساء ولا طلبا

للأنس وليالي الهوى، لكنه البحث الجنوبي الدؤوب والمؤرق وغير المفهوم تماما عن المولود الذكر! ذلك البحث الذي تؤججه وترعاه وتحدب عليه وتورثه نساء الصعيد أكثر من رجاله، فجدة الآنسة "صلاة" لأبيها كانت هي من تطرق أبواب العائلات بنفسها لتطلب تزويج بناتهم لابنها بحثا عن المولود الذكر المنشود. ولم يكن شيء يشعرها بأنها تتخطى حدودها أن تهدد سلام أسرة ولدها، بل هي على العكس كان تؤدي واجبها في حفظ سلالته من الفناء المحتوم!

"لأني اتولدت بت مش واد، جدتي كانت تناديني تقوللي يا "كِمْد" يعني يا "شيلة تقيلة"...وكانت تبقى أمي خابزة لها في الصبح وهي تنزل بعد العصر تجوز أبويا واحدة تانية...بدون أي إحساس بالذنب! "

ظل أبو "صلاة" على بحثه عن الزوجة الموعودة حاملة الذكر في أحشائها حتى قبل أن تموت أم "صلاة" بمرضها، الذي أقعدها سنوات ككتلة بلاحراك تستقبل معايرة زوجها بتسليم وحزن دفين، ما عجّل حسب رواية "صلاة" بموتها كمدا.

"في كل مرة كان أبويا يتجوز وأمي عايشة يغيب يغيب يغيب وتبقى عارفة انه راح يتجوز، لكن تنتظره باستسلام ولا تشتكي ولا تشحن صدري أنا واخواتي عليه...وأول ما تخيب جوازته ومرته الجديدة ما تحملش أو تحمل في بت يرجع بخيبته على بيت أمي فتستقبله كأنه ماغابش ولا ساعة...من غير عتب ولا كلام، تقوم تطبخله أكله حلوة وتلبس لبس جديد وتبدأ معاه صفحة جديدة في صمت، لحد ما ييجي الدور على غندورة جديدة يروح يغطس عندها كام شهر....الله يرحمها أمي كانت بتحبه وبتقدر تغفر له...تصدقي إن بعض الجوازات كانت بفلوس أمي؟!"

قبل أن تلاقي الأم ربها، وبعد أن أقعدها المرض العضال، حاول الأب المزواج الاستفادة من وضعها الصحي المتدهور فبدأ يستنزف من تأميناتها الاجتماعية دون الرجوع إليها، وحين علمت بالأمر حدثت مشادة بينهما فطلقها شفاهة أمام الجميع، لكن دون أن يسجل تطليقها في أي أوراق رسمية ليستمر في الاستفادة المادية منها! وإمعانا في إذلالها رفع عليها دعوى نشوز وطلب في بيت الطاعة على اعتبار أنها لا تزال على ذمته وأنها لا تعيش ببيت الزوجية، الذي كانت أمه قد طردتها منه قبل سنوات في حقيقة الأمر!

وكان مثول الأم القعيدة أمام إحدى محاكم الأسرة في صعيد مصر آخر "نشاط اجتماعي" قامت به قبل ملاقاة ربها.

عن الحبيب "الواطي" الذي فضل الإرث على الحب!

أرسلت الأقدار لـ "صلاة" قصة حب عابرة ربما على سبيل تلطيف الحياة قليلا، كما تلطف النسمات الشمالية حرارة الصعيدة في ليالي الصيف الحانية. وعلى الرغم من أن الفتى الصعيدي حار الدماء شديد الغيرة كان يبدو كـ "ذئاب الجبل" ببنيانه الفتي ونفاد صبره وقوة شكيمته، إلا أنه حين خُير بين حبه لـ "صلاة" وطاعته لأسرته وإرث أسرته، اختار أسرته والإرث دون كثير شرح!

"في الأول أهله رحبوا بيا، لحد ما سألوا عن ناسي وعرفوا سيرة أبويا كلها...الجوازات والطلاقات وخلفة الواد...كل الحكايات القديمة اتعرفت...عمه قاله لو حتاخد البت دي يبقى تنسى أرض أبوك...وراح اختارله عروسة تانية وغصبه عليها غصب، وهو مافتحش خشمه...نخ الواطي عشان الأرض! وبعد ما ضمن الأرض وبقت باسمه، طلبني زوجة تانية فرفضت"

ليس فقط ثأرا لكرامتها رفضت "صلاة" أن تعود إلى الحبيب "الواطي" لكن أيضا لأنها كانت تعلم ككل من في البلد أن "الواطي" لا يكف عن ضرب زوجته انتقاما من عمه الذي زوجه إياها غصبا!

ذكريات الجدة "نبوية": أمطار السودان الصيفية وآكلات لحوم البشر والنداهات المثابرات اللاتى لا تندهن إلا بخطف ضحاياهن!

تتغير ملامح "صلاة" وصوتها ليكتسي كل ما فيها بالحنين الفرح والتبسم الرائق حين تأتي سيرة "الجدة" ...الجدة "نبوية"...الشاهدة على النصف الأول من القرن الماضي وخازنة الحكايات المفزعة والمضحكة على حد السواء...الجدة الحانية التي قاربت أن تتم عامها المائة والتي قضت صباها في جنوب الجنوب...في السودان!

"جدتي ست طيبة خالص ومرحة وحنونة وهي الوحيدة القادرة على تجميع العيلة حواليها وعشانها هي بس الخلافات بين أفراد العيلة ممكن تتعلق أو تتأجل أو يتسكت عنها...جدتي مش متأكدة هي اتولدت سنة كام بس هي بتقول انها نديدة حسني مبارك! ولأن خالها كان باشكاتب في السودان أخدها معاه لأنها اتيتمت في شبابها، لما جات شوطة الكوليرا في الصعيد وأخدت أبوها وأمها وأختها الكبيرة...خال الجدة كان راجل مرتاح (ثري) وكانت جدتي بتحكي إن كان عندهم في السودان موالي وعبيد سود وطباخين وكان الخال مأجر لها معلمين يحفظوها القرآن ويعلموها القراية والكتابة، عشان كدة على خلاف نديداتها من مسنات الصعيد جدتي متعلمة"

تحكي الجدة "نبوية" لحفيدتها الأثيرة "صلاة" التي كانت تعشق الجلوس تحت قدميها لتنصت لحكاياتها السارحة الشاردة بعيدا، كيف أن السودان كان بلدا خصبا جميلا يتمطأ ناعسا على جانبي النيل في كسل محبب، محفوفا بالزروع من كل جانب...لكن أدهش ما في السودان كما يبدو من

حكايات الجدة كان مطرها...فأمطار السودان الغريبة لا تهطل في الشتاء كما في الصعيد، بل في الصيف! ولا تهطل رحيمة كالزخات التي نعرفها في أنحاء مصر، بل غزيرة ثقيلة النقاط.

لكن أخوف ما في السودان بحسب وعي الجدة "نبوية" لم يكن الفقر ولا القحط والحرب، بل نساء قبائل النمنم اللائي يقمن في الليل لينبشن القبور ويأكلن جثث الموتى! والجدة لا تقبل جدلا في صحة الحكاية المعروفة، فجارهم "الشاويش السوداني" الطيب كان ضحية لإحدى آكلات لحوم البشر التي تزوجها دون أن يعلم لها أصلا قبليا، على الرغم من أن أهالي السودان، وفق حكاية الجدة نبوية، كانوا يميزون آكلات لحوم البشر بحفر ندوب (شلوخ) معينة في وجوههن حتى لا يختلط نسبهن بالآخرين.

"الجدة حكتلي إن الشاويش دة كانت عنده ابنة شديدة الحُسن والجمال، لما أمها اتوفت اتجوز واحدة ميعرفش أصلها ولا فصلها، وكانت من قبيلة النمنم اللي بياكلوا لحوم البشر...الزوجة كانت بتغير من جمال البنت الصغيرة وكانت بتعتبرها غريمتها، وعشان تتخلص منها كانت كل يوم تسل من راس البت شعرة ...دة طقس وثني نساء القبيلة دي بيتوارثوه من أجيال...كل شعرة تسلّها من راس البنية كانت كأنها بتمص دمها لحد ما البت ماتت...بعد الدفنة راحت الست النمنم نبشت قبرها وأكلتها!"

وليس السودان وحده هو الذي أودع ذاكرة الجدة نبوية حكاياته الليلية السوداوية المخيفة، بل إنها حين اتجهت شمالا إلى الصعيد وجدت هناك مخزونا منافسا من الحكايات الأكثر ليلية وسواداوية! فهناك في الصعيد عايشت الجدة "نبوية" في شبابها وهرمها على السواء حكايات الجنيات اللائي "يلحسن" عقول الرجال، مثل حكاية حسن، الصياد الصعيدي الجدع الذي مسته جنية البحر (النيل) ذات ليلة مقمرة فكان يغيب أياما وشهورا طويلة حتى يظن جميع من في البلد أن البحر قد ابتلعه

وأن جثته ستطفو ذات ليلة على سطح البحر، حتى يظهر من جديد واجما لا يتحدث إلا مع امرأة غير مرئية يقولون إنها جنية البحر التي تخطفه فيختفي معها في قاع البحر لشهور وحين يظهر لا يفارقه طيفها!

وهناك أيضا حكاية العروس الحسناء التي دخلت بيت زوجها في ليلة الزفاف وفي عقبيها قط أسود ضخم، وفي ملابسة لا يعلم تفصيلها إلا الله هاجم القط العروس الحسناء و سحبها تحت الأرض لأيام طوال قبل أن تظهر من جديد وقد لفظها باطن الأرض فاقدة النطق والسمع والبصر، فقالوا إن الجني الذي كان متلبسا القط طمع في حسنها ليلة زفافها فعاشرها تحت الأرض!

ولأن الجدة "نبوية" حنون وراعية، فإنها لطالما حذرت طفلتها البريئة "صلاة" من النداهة!

"وأنا باذاكر في الشتا كنت مرات أسمع في الليل صوت مألوف على باب البيت بينادي عليا باسمي وبيهمهم بكلام مش مفهوم...بس الصوت كان حلو وحنين فكنت بارد وأقول مين، ما حدش يجاوبني...ومرة فتحت باب البيت أدور على صاحبة الصوت ما لاقيتش حد...ولما حكيت لجدتي اللي كانت بتسهر تستنى صلاة الفجر معايا أنا وباذاكر خوفتني وقالتلي لو رديت على الجنية صاحبة الصوت الحلو حتخطفني! ولحد دلوقتي بتحذرني طول الوقت: لو صوت نادى عليكي ومانتيش شايفة صاحبه اوعك تردي أحسن الصوت ياخدك!"

الثأر...الحكاية الأكثر مخافة من حكايات الجن!

ترتعد "صلاة" لما تقوله الجدة عن نساء النمنم وجنيات البحور، لكن قلبها ينقبض بحق حين يأتي ذكر الثأر...فالثأر في الصعيد ليس مزاحا ولا خرافة ولا تراجيديا تمثيلية تُشاهد على الشاشات فحسب، بل هم ثقيل يملأ هواء البلد ويكبل القبائل برجالها وسلاحها لعقود من الزمان...فهو الذاكرة الأكثر حضورا والتاريخ الذي لا يُمحى.

عاشت "صلاة" هذه الأجواء بحيث لا تقدر أن تنساها، ففي التسعينيات وقعت مشادة بين اثنين من الفتية في البلد انتهت بمقتل أحدهم خطأ...أخذ الجاني جزاءه بالقانون وأتم مدة الحبس للقتل الخطأ، لكن قانون الصعيد الذي يسري خارج أروقة المحاكم شيء آخر.

"الواد راح لناس القتيل شايل كفنه على يده، والراجل اللي يشيل كفنه يبقى خلاص اتعلم عليه...يعني معادش يقدر يقيم راسه وسط الرجالة تاني...اتكسر يعني زي ما بنقول هنا... المهم أهل القاتل دفعوا الدية والبلد شهدت عالصلح والتراضي...الرجالة في عيلة القتيل رضيوا لكن خالة القتيل رفضت الصلح...وبقيت منتظرة خروج الواد القاتل من السجن عشان تحرك التار تاني...أنا عارفاها لأنها كانت بتدرسلي لغة عربية في المدرسة، وكانت بترفض تقرا معانا نص رثاء الخنساء لأنها رافضة تعدد على ولدها قبل ما تاخد التار!"

الخالة المكلومة لا تزال حاملة الثأر إلى يومنا هذا بملابسها السوداء ووجهها الكظيم الشرس، ولا تزال تتهم رجال عائلتها جميعا في رجولتهم ذلك أنهم قبلوا عار الصلح وذل التراضي!

<u>معبد الفراعنة...حيث يكمن سر الخصوبة!</u>

تقول "صلاة" إن المعبد الفرعوني القريب من بلدتها ينطوي على شيء ما مهيب، وأن سكان المدينة التي تضم المعبد يخشون التواجد في حرمه ليلا لما ينسج عنه من حكايات تتعلق بلعنة الفراعنة التي لا يجروء أحد على تكذيبها أو التهوين من شأنها، فهم أناس يؤمنون بالسحر والقوى الغيبية ويسلمون لها كمعطىً أساسي من معطيات الحياة.

"خالي مثلا راح عند المعبد في الليل من غير سبب...يمكن كان له مصلحة هناك ويمكن كان عايز بس يتحدى اللي بيتقال في البلد عن لعنة الفراعنة..المهم ان دماغه اتلحست! هو من ساعتها كل كلامه عن لعنة الفراعنة وعن حكاية إيزيس وأوزوريس وبيقول انه اطلع على معرفة مش متاحة لنا عن اللي شهده المعبد وأرض إدفو كلها من هوايل ماحدش ممكن يتصورها...مسكين أسرته اتدمرت وحياته خربت من وقت الزيارة المشئومة دي!"

لكن الطاقة الغامضة المنبعثة من المعبد الفرعوني ليست شريرة على الدوام، على العكس فمالمعبد به مقصورة للإله "مين" إله الإخصاب والتناسل لدى قدماء المصريين، وهي المقصورة التي تقصدها النسوة العواقر طلبا للإنجاب بعدأن تتلون تعويذة فرعونية بعينها!

وتقول الأسطورة المتوارثة والمتداولة شفاهة إن الإله "مين" الذي تصوره رسومات الجدران على هيئة رجل عضوه الذكري منتصب ويرفع في الهواء ذراعا وحيدة بينما تظهر بشرته من طيات ملابسه باللون الأسود الذي يرمز لخصوبة الأرض الطينية، وهو الذي يعد كذلك أقدم إله فرعوني معروف، إنه يمثل رجلا وجد في أحد أزمنة الحروب التي كانت تخوضها الدولة المصرية القديمة في المنطقة، ولأنه كان ذا إعاقة ما (ربما تتمثل في ذراعه التي لا تظهر في الرسومات لأنها كانت مبتورة) فإن الجيش خلفه وراءه ليحمي البلاط في غياب الملك والحاشية من الرجال. وفي أثناء غياب الملك خشيت الملكة من انقطاع نسل المصريين فضاجعت الرجل المعاق وأمرت نساء البلاط جميعا بمضاجعته، فعاد الملك ليجد البلاط يعج بالأطفال من نسل هذا الرجل! وحين حاول الملك عقابه بتقطيع أوصاله ظل "مين" منتصب العضو الذكري حتى في أثناء التعذيب، فخلد المصريون القدماء أسطورته واعتبروه إله الإخصاب والتناسل!

"بس اللي تروح تلف حوالين المقصورة أو تتمسح في رسومات إله الإخصاب عمرها ما تحمل في واد! لازم تجيب بت...حمل كسر يعني! وغالبا البت اللي بتيجي دي بتبقى منبوذة من أبوها، كأنها مش بنته ولا من صلبه! كأن أمها جابتها من الراجل الفرعوني دة صحيح!"

حكاية "بشاير" ... حكاية شارع!

"بشاير" واحدةٌ من القليلات المتعطشات للحكي، المشحونات بلقطات كثيرة من تلك التي تختزنها الذاكرة وتنوء بحملها طويلا. لذا فقد كانت تلك الشابة العشرينية السمراء المتعلمة جامعيا هي من سعت للقائي ومحاكاتي بشغف.

حكاية "بشاير" لم تكن حكايتها ولا حكاية إحدي النساء من حولها، بل كانت حكاية شارع!

" شارع سليم بيه بدنجان! شارع الشوم والسواد...بعيد عنك كل ما البلد تسمع حكاية سودا تكون حاصلة في الشارع دة...أنا أصلي كنت باخد دروس الثانوية العامة هناك وسمعت كل الحكايات... زمان في العشرينات كان ساكن في الشارع دة واحد بيه كبير عنده عبيد...واحد منهم كان عبد اسود صغير في السن...مرة البيه دة كان بينضف سلاحه قام طيّش منه عيار فلتان فأخد أجل العبد الاسود، قام البيه من عمى قلبه دفنه في بير السلم بتاع بيتهم، فعفريته طلع واتمرّد (أصبح ماردا) وسيطر على الشارع...من ساعتها وكل سكان الشارع جيل من بعد جيل تاجيهم مصيبة ورا مصيبة"

ومن بين حكايات شارع سليم بيه بدنجان التي حكتها "بشاير" كانت حكاية ست "شوشو"، تلك التي كانت تدير بيتا مشبوها في نفس الشارع والتي لم يكن أحدٌ يراها إلا وهي في كامل زينتها!

"مكان ما كانت تمشي كانوا الرجالة يغزرولها (ينظروا لها) إكمنها كانت بتلبس غير باقي نسوان البلد، وكانت بترسم الكُحل في عينيها على طريقة الفراعنة! مرة وقعت منها شنطتها قدامنا في الشارع ولقيناها مليانة علب بودرة وكحل وقزايز ريحة...هي كانت مَرَة لسانها طويل تتلفح بيه زي ما بيقولوا، بس الحق يتقال كانت رجيلة...لو حد جاها مزنوق في فلوس ولا خدمة ماكانتش تتأخر خصوصا ان كان ليها معارف كبار قوي! ورغم ان الرجالة والبيرة كانت داخلة طالعة على بيتها، لكن مكانش حد يشوف ضافر بناتها! وما كناش نعرف غير ولدها وحيدها"

لم تقف سطوة ست "شوشو"، كما ورد في حكاية "بشاير" عند أعتاب عالم الإنس، بل امتدت كذلك لعالم الجن والمَرَدة! فقد كانت ست "شوشو" تسكن العقار الذي شهد جريمة قتل "العبد الاسود" وهي الوحيدة التي كانت ترى شبح القتيل العبد وتحادثه، بحسب ما يتردد وسط نسوة البلدة، فلم تكن تخشاه ولم يكن يؤذيها!

لكن لأن الشارع "ملعون" كما أكدت بشاير، فقد طالت اللعنةُ ست "شوشو" واختطف طائر الموت الأسود ابنها الوحيد بمرض غامض داهمه وأنهى سنوات عمره القليلة في أيام...

"ومن ساعتها، وست "شوشو" حالها اتبدل... ماعادتش ترسم عينيها، وانكسرت...بقت تمشي في الشارع ساكتة وعجزت سنين على عمرها...ولا بيرة ولا رجالة ولا ضحكتها اللي كانت بترن...بقت واحدة تانية يا ولداه...وبقينا نشوفها منعرفهاش"

لعنة الشارع التي تحدثت عنها "بشاير" انتقلت من بيت ست "شوشو" بعد أن اختطفت وحيدها، لتصيب البيت المجاور له...بيت "عثمان" ...الرسام الهائم في عالم الألوان والذي نزلت عليه مصيبة أكبر من قدرته على الفهم والتدبير. فقد تم اقتياده إلى إحدى سلخانات جهاز أمن الدولة سابقا

للتحقيق معه بتهمة الضلوع في أعمال إرهابية تحت مظلة إحدى جماعات الفكر الجهادي، وكانت بودرة الألوان المنتثرة في أرجاء غرفته هي المادة "الكيميائية" التي تؤشر على أنه، ربما، كان ينوي تجهيز متفجرات منزلية الصنع!

"عثمان دة كان أصلا هلاس! دة واحد مكانش بيصلي وكان بيرسم نسوان عريانة، يبقى جهادي سلفي؟ طب منين؟! ومنين بودرة الألوان تعمل كنابل؟ المهم أهو اتاخد عاطل في باطل عشان ابن خالته كان جماعات"

أمام عيني أمه، ضُرب "عثمان" ضربا شديدا أثناء اقتياده للتحقيق ثم السجن حتى سالت دماؤه أمام أمه والجيران من سكان شارع "بدنجان" ...بعدها بشهور علم سكان الشارع أن الرسّام "الهلاس" ُحكم بالسجن المؤبد!

"سمعنا انه شاف كل صنوف العذاب في السجن من ضرب لكهربا لحاجات ماقدرش أقولها...بعدها أمه جاها السُكّر واتقطعت رجليها الاتنين...مش باقولك شارع السواد؟!"

خرج "عثمان" من محبسه قبل إنهاء محكوميته، لكنه خرج سلفيا جهاديا كما ينبغي للسلفي الجهادء أن يكون! فقد خالط في السجن الحركيين المتأصلين في الجماعات الإسلامية والذين جعلوه نبذ الرسم والفنون جميعا، وخرج ليبحث لنفسه عن زوجة "صالحة" وفقا لمعاييره الجديدة، فكانت تلك جارته المنتقبة التي أنجب معها بنتا وولدا.

"كان بيصرف منين بعد ما خرج من السجن ماحدش عارف..بيشتغل فين ما حدش عارف...بس الناس هنا عارفين ان الإسلاميين متكافلين مع بعض...لما مرسي مسك بعد الثورة قالوا عثمان ساب الصعيد وراح مصر (القاهرة) عشان يبقى قريب من الهوجة...ومن ساعتها مارجعش ولا

البلد تعرف عنه حاجة...بيقولوا آخر مرة اتشاف كان في رابعة...ومن ساعتها ماحدش شافه تاني"

أما أم "عثمان" ، فقد كان لها نصيبها من التعاسة، ولا تكمن تعاستها فقط في كونها مرضت وفقدت ساقيها بفعل المرض المخيف، ولا في المصير الذي لاقاه ولدها، لكن تعاستها الحقيقية أنها في عُمرها هذا وفي ظروفها البائسة تلك وبرغم مُصاب ابنها، كانت تحيا حالة ذهنية مغايرة لواقعها بالكامل!كانت تعيش في عالمها الخاص جدا والذي أجادت اصطناعه لنفسها... فقد كانت تحُس (حتى في مقعدها المتحرك بعد فقد ساقيها) بأنوثتها وتحاول استعادة شبابها في كل لحظة بالذكريات واسترجاع ما كان...وبتأمل أثوابها الأكثر إغراء والتي تعود أزياؤها لما يزيد على نصف قرن مضى من الزمان!

"أم عثمان طول الوقت بتتفرج على صورها الأبيض وأسود وتفرج نسوان البلد عليها قال عشان يشوفوا كانت حلوة ازاي! حتى أنا شفت صورها..كانت بتلبس جونلات قصيرة وتشرب سجاير في الصور! ولحد قريب لو دخلتي اوضة نومها تلاقي قمصان نومها اللي كانت بتلبسها وهي بنت بنوت او وهي عروسة...إشي بمبي وإشي أحمر وإشي ترتر وحاجات فيها ريش ! الله يرحمها بقى...ماتت قبل ولدها ما يختفي..اتجوزت في حياتها تلات مرات ولحد ما ماتت على كرسي بعجل كانت شايفة نفسها ست ومرغوبة كمان!"

ولم تكتف لعنة الشارع، على ما تقول "بشاير" بالمصير المؤلم لست "شوشو" و"عثمان" وأمه، بل امتدت لتطال أيضا أسرة "النجاتي" الكبيرة والتي كانت تسكن الشارع نفسه...وأسرة "النجاتي" كما وصفتها "بشاير": **"عيلة كبيرة ومتعلمين وميسورين...كلهم مدرسين وموظفين في وزارة الزراعة! الأب ابن باشاوات من بتوع قبل ثورة يوليو، والأم حاجة كدة بيضة وسمينة من أصل**

تركي...قمر! ومابتلبس عِبِيْ (عباءات- جمع عباءة) زي باقي ستات البلد...بتلبس تاييرات وبتحط بروش بيلمع على صدرها!".

هذه الأسرة ضربتها لعنة الشارع في ولدهم الوحيد، الذي يسكن بدوره شارع "بدنجان"،وإن كان لا يجروء على العيش في منزل العائلة...فالابن يُعرف في البلد بكونه ذا ميول جنسية غير سوية!

" تاهمينه في البلد ان مزاجه في العيال الصغيرين! ودي في بلدنا مصيبة، ولا أهله عارفين يستروه ولا قادرين يحوشوا عنه ضرب الأهالي كل حين ومين، وبسببه عيلته كلها منبوذة ولا عارفين يقيموا راسهم وسط الخلايق...مع ان ابوه وامه ناس محترمة ومكانوش يستاهلوا الفضيحة".

أما "الملعون الأخير" في هذه القصة، فهو ابن الست "آمنة"، المرأة المصلية التي يحبها جميع جيرانها، والتي ابتلتها أقدارها بولد وحيد قرر أن ينتمي لجماعة مسلحة تعمل باسم الدين، وقرر أن يَنْهى عن المُنكر بيده.

"الواد ابنها في التسعينات مشي في سكة الجماعات...وقالوا انه شارك وقتها في قتل عضو مجلس شعب...وكان يقف على ناصية شارعهم يستنى بنات المدارس، اللي مش لابسة الحجاب يضربها بالجنزير"

كان الفتى، كما سمعتْ "بشاير" ممن يكبرونها سنا، بارعا في أعمال التخفي والهروب والخداع، شاع عنه أنه كان يزور أمه خفية في ملابس امرأة منتقبة ثم يهرب قبل مداهمة رجال الأمن للبي...وكانت الأم هي ضحية ذلك القدر، فقد كانت الأم هي التي فقدت الاطمئنان بحضن ابنها، والتي ابتليت بزيارات فجرية متكررة من رجال أمن الدولة بحثا عن الابن المفقود.

"لحد ما جابولها خبر ابنها في مواجهة مع الأمن! ماعرفش هي لسة عايشة ولا انتقلت، بس الأكيد انها عاشت أيام سودا...أنا ممكن آخدك الشارع دة تشوفي بنفسك...أول ما تحطي رجلك على أول الشارع قلبك حيتقبض وحتحسي بكل الضلام اللي فيه...تحبي تاجي معايا؟!"

لكني لم أزر الشارع أبدا، وأعتقدُ أني، إن توخينا الصدق هنا، لم أقوَ على زيارته واستنشاق كل هذا الألم المنثور في هوائه.

الجزء الثاني:

حكايات الصعيد التي لا يملكها أحد

الجَدة "بَخيتة" ... خبيئة الحكايات المَنسية

قيل: إنك لتفك شفرة أمة عليك بالإنصات إلى حكاياتها الخرافية!

لذا فقد سألنا عمن تفتح لنا صندوق ذكرياتها المهملة وخرافاتها المحفورة في الوعي والوجدان، علّ الصورة تتضح أكثر في أذهاننا، فدلونا على الجدة "بخيتة" ..أين؟ عالدكة طبعا...أمام عتبة دارها كما هي العادة!

توجهنا للدكة المنشودة فوجدنا ما أحب لنا الخيال أن نجد وزيادة! امرأة مسنة تغضن كل ما فيها حتى الصوت، تتمضغ (تمضغ التبغ) وتبصق "البصغة" الباقية منه بلا توقف...تعرف الجدة بخيتة الغرباء ولا تخشاهم، فقد رأت ما يكفي في سنين عمرها التي قاربت على المائة ولم يعد يخيفها إلا لقاء ربها بما كسبت يداها.

وكما اقتسمت معنا الجدة بخيتة براد شايها الداكن المر بسخاء وبلا تردد، اقتسمت كذلك معنا بصوت ذكوري أجش ما استطاعت استدعاءه من ذكرياتها وذكريات البلد...قطوف من هنا و قطوف من هناك لا يكاد يكون من رابط بينها ولا تناسق، لكنها أضاءت لنا أركان الخيال والفكر وأسلمتنا للذة الإنصات إلى الجدات حين يتدفقن مرويات بينما تروح ملامحهن وتجيء بين الحزن الأصيل والفرح العنيد.

عمن فقدواعقولهم فكانت السلاسل الحديدية هي المصير

لا تفارق وعي الجدة "بخيتة" مشاهد بعينها انحفرت في مقلتيها في مطلع شبابها، ولم تبرحهما إلى الآن...من بين تلك كان مرأى "صبية" الفتاة المليحة بنت الأثرياء التي فقدت عقلها دون سابق إنذار لتجلب على نفسها وعائلتها ذات الاسم و"الطين" العار والمصير المأساوي. تحكي الجدة كيف أن الصعيد كان في أيامه السابقة أكثر تخلفا مما هو عليه الآن، وأكثر قسوة...فهذا الجنوب البائس لا يعرف المصحات العقلية والنفسية، فقط يسمع ناسه بالخانكة فيستعيذون بالله منها مصيرا. أما من يجروء على فقد عقله في مجتمع مغلق وجاهل وقاس كهذا فلن يكون له مآل إلا الربط بالسلاسل حتى الموت!

"دي كات صبية من عيلة غناي (أغنياء) قوي قوي وعنديهم طين وزرع وسجر بُرتُكان (شجر برتقال) وجوافة...وكان ناسها مشايخ عرب. صبحت في يوم مش بعقلها...جنت البنية يا ولداه! قاموا ولاد أخوها قصدوا الحداد عِمِلها سلاسل حديد وفي آخر كل سلسلة طوق عاشكان (علشان) يربطوا ايديها ورجليها في السقف...والسقف زمان يا بتي كان عااالي كيه سقوفة المعابد (كما أسقف المعابد) وكان سقف فلوق يعني يجيبوا نخيل الدوم ويفلقوا الجذع اتنين ويعملوا منها السقف...وربطوا البنية النحيلة في الفلوق بالسلاسل لحد ما ماتت في مكانها"

ثم تقف الجدة "بخيتة" كأنما أقبل شخص ما وتقول متحدثة لهذا الطيف الذي قدم: **"رحمة الله عليكي يا صبية يا بتي...أنتم السابقون ونحن اللاحقون"**

ثم تجلس بعد أن أدت التحية لطيف "صبية وتستأنف وصفها بأنها كانت نحيلة جدا، لم تكد تُرى إلا بجلباب واحد على مدار السنوات، وكان جلبابا ممزقا كابيا في لون الكمون، ذات شعر قصير...كانت تمر بها الجدة بخيتة في شبابها تلقي نظرة عليها فتطلب منها "صبية" أن تسقيها فتفعل مشفقة.

" صبية كانت بتحب مييين؟ كانت بتحب أبو العلا...جدع متجوز ولا في باله صبية، لكن هي اتعلقت بُه...كانت مَرّات تفك من السلاسل وتسرق قروش وفَطير من بيت ناسها وتجري عالبحر، ترمي الفلوس والفطير لملايكة البحر عاشكان ياكلوا وينبسطوا قال ويخلوا أبو العلا يحبها"

الحكاية الأخرى الوافدة من نفس العالم الكابي كانت حكاية "مبروكة" التي كانت من بيت يسري بين أفراده الجنون! كانت "مبروكة: زوجة وأما ...وأختا لرجلين مضطربين عقليا كمثلها! لكنهما كانا أقدر على أداء أدوار العقلاء منها، فأفلتا من مصيرها الكئيب، على الأقل إلى حين.. حين بدأت مبروكة تملأ الدنيا صراخا وتعتدي بالضرب على الأطفال في الطرقات، كان على أخويها أن يربطاها بالسلاسل الحديدية في سقف حجرة الخزين. لكن مبروكة كان مربوطة وهي عارية تماما، فهي أدنى من أن تسترها خِرَق القماش حتى!

"كنا لسة صغيرين، وكنا نروح نِفنس (نطل) عليها من الشباك، فنلاقيها حمرا (عارية تماما) وشعرها منكوش...كان شكلها مخيف مش زي دِكّي (تلك- تقصد صبية) وكنا نخاف نقرب عليها ألا تهيج علينا وتعفصنا تحت رجليها المتسلسلين...كات عاملة كيه الحيوان السعران المتسلسل"

وبدورها ظلت مبروكة في مكانها حتى فتح عليها أخوها الأصغر في صبيحة أحد الأيام فوجدها قد فارقت الحياة.

أما أخو مبروكة الآخر عجز بعد موتها عن ضبط جنونه الكامن، فأفلت منه ذات ليلة شتوية!

وتروي الجدة "بخيتة" كيف تنكر الأخ في هيئة عابر سبيل ومر بأحد جيرانه متخفيا طالبا المأوى، ففتح له الجار بيته مُضيفا كما تقضي الأصول. بات عابر السبيل ليلته ومع أذان الفجر قام فأخرج حزاما قماشيا حول بطنه وهجم على مُضيفه وذبحه من الوريد إلى الوريد! هكذا بلا ثأر قديم ولا منفعة مرتجاة ولا شيء! ذبحه فقط ليتلهى بذبحه!

ثبت جنون الرجل وأودعه القضاء في مكانه الطبيعي: مستشفى الأمراض العقلية في القاهرة...حاولت العائلة طمس ذكراه والتنكر لحكايته كأنما مات ودُفن بغير رجعة، لكنه عاد بعد ربع قرن من الزمان إلى بلاده وناسه وقد بدا طبيعيا...لكنه لم يكن كذلك أبدا!

حجرت عليه العائلة ومنعته من التصرف في إرثه، لكنهم لم يمنعوه أن يتزوج ويتاجر في الجلود(!) آملين أن يكمل ما تبقى له من الحياة هادئا دون أن يجلب مزيدا من الفضول والعار على بيته، لكنه بدأ يفتعل المشكلات ويعتدي على زوجته وبناته على سبيل التلهي حتى كانت النهاية المحتومة للحكاية:

"شرب سم وموت روحه...جاب السم بتاع الزرع وشربه ومات في أرضه...ولأن بتوع الصحة كانوا عارفين حكايته وعارفين مرته وعويلاته (أبناءه) فكتبوا في أوراقه انه قلبه وقف...يعني يسيبوه يبهدل مرته مسكينة حي وميت؟!"

تصمت الجدة "بخيتة" قليلا، تحتسي شايها على مهل ثم تخرج من "سيالة" جلبابها صرة قماشية صغيرة بها مضغة تتمضغ منها قبل أن تبصق وتستأنف السرد:

"ما انساش كمان الجدع اللي كان اسمه "سعيد"...كان شاب حليوة يستحي من عالأرض زي ما بيقولوا...يعني خجول جدا يتكسف ما يمشي وسط الناس ويتنظر فيهم...فجأة يا ولداه جاله لُطف وابتدا يرمح (يجري) ورا النسوان في الطريق ويخلعهم (يفزعهم) ويضحك ويصرخ ويعوي في الليالي...العيال الصغيرين من قساوتهم جابوا بنادق الرش ورموه في عينيه يا قلبي فقعوله عينيه! وهو ولا داري ولا حاسس حتى بالألم وعينيه تجيب دم وهو ولا داري يا ولدي...ما هو

المجنون دة مايحسش زينا! المهم لما راحت عينين الجدع معادش ينفع يتساب في الشوارع كدة فأهله ربطوه بجنزير!"

ولم يكن يحنو عليه إلا شيخ مسن من أبناء القرية كان لسبب ما لا يعلمه أحد مكرسا نفسه لخدمة مجاذيب بلده.

ثم تضحك الجدة "بخيتة" للمرة الأولى مذ بدأت تحكي، فتضحك مع ضحكتها تجاعيد الوجه اللامنتهية، و تقول :

"بس مش كله حِزن ومرار يابتي...أفكر الواد "عاطف" المجنون...الله يجازيه كان جنانه حلو! كان جاي عليه بالرمح فكان يرمح كأنه عربية، هو كان عامل نفسه عربية ويطلع يرمح واللي يشاورله كان يوقف وياخده وراه في ديل الجلابية ، لا وياخد منه أجرة كمان! هههههه كانوا العيال يشرّكوا(يقطعوا) ورق الجرايد ويدوه لعاطف على انه أجرة...ولما عاطف يحب يجامل حد يركبه معاه من غير أجرة هههههههه الله يجازيك يا عاطف!"

وحين سألتُ الجدة "بخيتة" إن كانت تظن أن مجتمعها قاس على الضعفاء، أنكرت في البداية وقالت "لا مش قاسي ...بس جاهل"...ثم صمتت قليلا وكأنما تسترجع مشاهد من حكايات مخبوليها ومجاذيبها القاسية، قبل أن تقول **"والله يابتي الباين معاكي حق...القلوب هنا قاسية...واللي يوقع عليه السلامة!"**

<u>مارد في الجبانة وآخر على الطريق!</u>

تسأل الجدة "بخيتة": **"إيه تاني عايزين؟"** فنسأل عن المردة، أو "الجنون" كما تسمى هنا، فتقول بيقين:

"آه الجنون...طبعا فيه جنون...مابتقروش قرآن يا بتي؟! بيقولك فيه مارد عند الجبانة اللي في بلدنا هنا، جنب المعبد..جبانتنا دي بالذات غير أي جبانة، بيقولوا انها بتفني الميت! يعني مافيش عضم يرقد فيها بالكامل! طينتها تفني العباد من قديم الزمان"

وتحكي الجدة "بخيتة" عن مارد الجبانة فتقول إنه عملاق، ولا بأس بحجمه إن لم يكن مشاكسا، لكنه مشاكس يعوق عمل المُلَحدين وحفاري القبور الذين يسمونه "قاطع الطريق". كما كان يشاكس أهل المتوفين حين يذهبون لدفن موتاهم أو زيارتهم، وبخاصة النساء اللاتي كن يذهب ليوقدن الشموع للشابات المتوفيات كي لا تشعرن بالغيرة إذا ما هم أزواجهن بالزواج من أخريات!

"لما شابة تموت وياجي جوزها يتجوز غيرها، قوم أمها ونسوان البيت ياجوا يولعوا شمعة على فسقيتها (قبرها) قال عشكان ما تغيرش من الزوجة الجديدة! طب كيه تغير وهي ميتة؟! نهايته، كان مارد الجبانة يعاكس النسوان ويخلعهم...قام الحفارين جابوا شيخ كبير كبير وواصل بس ماقدرش يكتله (يقتله) فنقله من الجبانة للخلا"

وتستكمل الجدة عن المارد الآخر الأكثر إزعاجا الذي يجلس على قارعة أحد الطرق الرئيسية الواصلة بين قريتها والقرية المجاورة، والذي يتلهّى بقلب السيارات وقتل العابرين!

"يمد المارد رجله كدة يقلب العربية! قاموا النسوان غلوا عدَس وكبوه على الطريق عشان المارد ما يبطل يلحس الدم اللي عالشارع وفيه نسوان دقت مسامير عالأسفلت في قلب بقع الدم قال عشكان روح الميت ما تطلعش تلبش اللي رايح واللي جاي...ولا فيش فايدة...لساه قاعد ابن الوسخ!"

تبصق المضغة مجددا وتضيف: **"وطبعا ما حاحكيلكيش حكاية قرينة سيدنا سليمان لأنك عارفاها...مش عارفاها؟؟!! يا بت مش عارفة قرينة سيدنا سلميان؟! خباار (ما خبرك؟!) طب عارفة سيدنا سليمان؟! أهو سيدنا سلميان عليه السلام دة اللي شاف القرينة أم قرناء الإنس، لاقاها في الجبل منكوشة وشكلها وحيش..قال لها تعالي فأبت ما تروح، قال تعالي، فأبت ما تروح، قال لها تجيني باسم الله ورسول الله محمد فجات تحت رجليه...قالتله أنا أفرق الحبيب من حبيبته والوليف من وليفته والمرة من عيالها والأبو من عويلاته...فأخد عليها عهد ما تكتلش اللي يقرا العهد...وأهيني أنا وبناتي لابسين الحجاب اللي فيه العهد عشكان القرينة كانت بتغير مني وتكتل لي العيال وهم لسة على الشطر (الثدي)"!**

<u>جن طيار وجنية ذات يد خشبية.ونساء لا يحبلن..ومازالت الجدة بخيتة تحكى!</u>

أسلمتنا حكايات الجدة "بخيتة" عن المردة المشاكسين الذين يقلبون السيارات على الطرق ويعرقلون عمل حفاري القبور إلى حكايات الجنيات اللاتي يردن معاشرة أبناء القرية، بالحيلة أو القهر، والمردة الذي يحرقون البيوت!

ومن حكايات الجن إلى حكايات العكوسات التي تغير الأقدار و"المشاهرة" التي تجعل المرأة الولود عاقرا والمرضع ذات اللبن "المري" جافة الثديين!

هكذا تأخذنا الجدة "بخيتة" لاهثين وراء حكاياتها دون سابق تقديم ولا استئذان ولا منطق!

تروي الجدة "بخيتة" عن "الجن العاقوط"، أي الذي "يعقط" البيوت، أي يرشقها بالحجارة، وهذا الجن المؤذي كان يهاجم الأهالي في العصريات الحارة التي يحتمون فيها ببيوتهم، يتسامرون

ويحتسون المشروبات الباردة، فإذا بحجارة تقتحم البيت من نافذة ما، لتنذر بالكارثة التي ستحل بالبيت بعدها بدقيقة أو اثنتين:

"البيت اللي يترمي بالطوب تمسك فيه النار في بحر دقايق...كأنه بيختار! كأن عقط الطوب كان اختيار، بيقول لأهل الدار ان بيتكم اللي عليه العين.. يتلهي أهل البيت في النار اللي قامت من غير سبب...نار متوحشة تاكل كل حاجة قصادها...يادوب يطفوا الحريقة الأولانية، تترمي طوبة تانية في حوش بيت تاني في البلد، ودقيقة وتشب النار علو كدة...ليه؟ عشان جن لطخ لامؤاخذة!"

وهكذا يتسلى الجن العاقوط بإلقاء الحجارة على البيوت على سبيل الإخطار بأن هذا البيت هو الذي وقع عليه اختياره في لعبة الحرائق الشريرة!

" جبنا المشايخ، وقعدوا قروا قروا قروا لحد ما الجن العاقوط حضر، سألوه عن حكايته وأرضه قال انه غريب مش من البلد وجا هنا على زعابيل الهوا الساخن اللي ضربت البلد...وفعلا، قبل حكاية العقيط دي ما تبتدي كان فيه زعابيل تراب شديدة خلت سما البلد حمرا...نهايته، المشايخ قروا عيله وركبوه الريح من تاني على بلد ناسه"!

<u>مصيبة أن يتلبسك الجن الفرار!</u>

وليس الجن العاقوط هو الأكثر إيذاء في تقدير الجدة بخيتة، فقد رأت من هم أكثر إيذاء و "لطاخة" منه، مثل الجن "الفرار" أي الذي يطير.

"بسم الله الله أكبر، الجن الفرار دة مصيبة...مصيييبة! دة يكمش في جتة الواحد من دول ياجوا المشايخ يقروا عليه يقوم يفر بعيد، يادوبهم يخلصوا قراية يرجع يلبس الجتة تاني!"

ولا تنسى الجدة تلك الفتاة الحسناء التي رمتها أقدارها بمصيبة الجن الفرار. تحكي قصتها بتأثر واضح، واصفة حسنها الاستثنائي الذي جلب عليها هذه المصيبة فتقول إن حكايتها بدأت يوم تحضرت وتعطرت وتزينت لحضور زفاف إحدى القريبات، ارتدت ثوبا أحمر فاتنا وتركت شعرها الليلي سارحا على ظهرها لامسا ما قبل كعبيها بقليل. ليتها ما ارتدت ولا تجملت ولا تركت شعرها يغري الإنس والجن بها!

"تاني يوم جاتها تشنجات، تتفرط في الأرض وتتمرضغ في التراب وتصرخ وتقطع وشها...ناسها لفوا بيها عالدكاترة قبلي وبحري ولا فايدة فاتجهوا للمشايخ...قالوا عليها بسم الله الرحمن الرحيم الجن الفرار...لومكانش الفرار كانت هانت لكن الفرار مصيبة...يعزّموا عليه المشايخ يطير والبنية ترجع زي الفل، بس المشايخ يدوها قفاهم يرجع تاني...حرمها النوم والقعدة الحلوة والجواز ...عاشقها بقى!"

ولا تزال الفتاة إلى الآن، كما روت لنا الجدة "بخيتة" معزولة عن الجميع في بيت متطرف بقرية الجدة بخيتة، هجرت أسرتها واحتجبت لا تظهر ولا تخالط الناس ويسمعها العابرون تتحدث بصوت رجولي أجش!

الجنية ذات اليد الخشبية...عشقانة!

وليست الفتيات وحدهن على مايبدو هن ضحايا ذاك النوع المخيف والقاهر من العشق، بل إن ذاكرة الجدة بخيتة تختزن حكايات مماثلة كان أبطالها فتيانا أو رجالا وقعت في غرامهم جنيات...وفيم العجب؟!

"الجنية دي كانت طويلة طويلة طول بيت، وليها عينين طوال شاقين الوش من الجبين للدقن ، وليها إيد خشب وكانت بسم الله الرحمن الرحيم تلبس الكعب العالي، اول ما تدخل مكان يسمعوا دق كعابها في الارض...تك توك تك توك! يعرفوا انها حضرت"

تقولها الجدة "بخيتة" بنبرة غضب واضحة في صوتها، فالجنية التي تثير غيظها على ما يبدو قد خلعت برقع الحياء بالكامل بعد أن وقعت في غرام أحد سكان البلد فاستوطنت معه بيت أبيه ثم بيته بعد أن قتلت عروسه ذات الجمال الأخاذ في نهارية زفافها!

"هو مكانش معاهد الجنية على شيء، الجنية هي اللي رمت دمها عليه (فرضت نفسها)، لما راح اتجوز قال غضبت بنت الوسخ، وكان ماخد (آخذ) البنية اللي كان رايدها من وهو فتى، بنية أحلى من القمر، عيونها وساع وشعرها ناعم ، كانت جميلة وكان اسمها جميلة...الله يرحمك يا جميلة (تقف الجدة بخيتة تحية لروح جميلة ثم تجلس وتستأنف حديثها)...يوم حنتها لقوها ميتة يا كبدي في سريرها والبلد كلها قالت دي الجنية ضربتها ضربة جابت أجلها"

حزن الشاب ومرت السنون بطيئة كئيبة عليه، ثم انتصرت فيه إرادة الحياة ليتزوج من امرأة أخرى، لكن الجنية قليلة الحياء ذات النزوع الانتقامي عادت لتنتقم منه، فمسته في بطنه حتى لم يعد يعرف الشبع أبدا، يأكل يأكل دون توقف ودون تذوق ودون شبع، ثم مسته مسا آخر أكثر شرا فيما بين ساقيه فانقطعت ذريته من على ظهر الأرض، وأخيرا مست بياض العينين وسوادهما فمصت نظره وضرته.

"وبالك على كدة سابته بخاطره؟ والله أبدا! ليلاتي تزوه وتخبطله على شباك المُندرة (المضيفة) مطرح ما بيفرط جسمه، ويسمع رنة كعابها، ومَرته كمان بتسمع رنة كعابها...وتسمع جوزها في

الليل يقول: أعوذ بالله منك..أعوذ بالله منك يا غاوياني ، ويطوح عصاه في الهوا قال عشكان يضرُبها"

تتدخل إحدى مجالسات الجدة بخيتة بالتأكيد على صحة الرواية مضيفة أن الرجل لا يزال على نفس الحال مذ مسته الجنية ذات اليد الخشببية، ضريرا بلا ذرية ولا أمل في أن يعرف الشبع أبدا! يصمت الجميع في انتظار حكاية الجدة بخيتة التالية لكنها تتلهى عنا بالمضغة وبصقها واحتساء الشاي، حتى تقترح إحدى النسوة عليها أن تحاكينا عن المُشاهرة، وهي الخبيرة بـ "فكها"... وكنا قبلها لا نعرف أن هناك شيئا في الوجود اسمه "المشاهرة" ناهيك عن أن يكون هناك احتياج لفكها!

<u>المشاهرة...فى إعادة اكتشاف القوى الكونية الكامنة!</u>

تقول الجدة "بخيتة" إن الصعيد زاخر بحكايات المشاهرة، وتتعجب من أننا لم نكد نسمع به، فالأمر لديها غير بعيد من صحيح الدين والمعتقد **"مش ربنا ذكر في القرآن السحر والحسد...أهي المشاهرة تالتهم وأعجبهم!"**

"شوفي يا ستي...لو كانت البت مختونة ودخلت عليها واحدة مش طاهرة، يعني حايضة، أو لابسة مصاغ يبقى البت المختونة عمرها ما حتتجوز، ولو حصل واتجوزت عمرها ما تخلف! دي اسمها مشاهرة...نقول البت "مشوهرة"...الحالة التانية لو مَرَة بترضع ودخلت عليها واحدة جاية من السوق وشافت في السوق سمك...أو دخلت عليها واحدة معدية من شرق البحر (النيل) لغربه...تحصل المشاهرة واللبن يقطع من شطرها!"

ولأن الكون أكثر رأفة من أن يترك النساء "المشوهرات" وحيدات في مواجهة تلك الروابط الخفية بين الرضاعة ورؤية السمك وعبور نهر النيل وبين الختان والطمث والذهب، فإن مسنات البلد يعرفن كيف يفككن هذا الارتباط الغامض، ويتوارثن شفاهة عبر الأجيال طرق رفع هذا البلاء الذي لا يعرفن علته وإن كن موقنات في وقوعه!

فالفتاة "المشوهرة" العاقر يكمن خلاصها في "الخُلعة" (الفزع- الإجفال)، ويكفي أن يغلق عليها الملّحد أحد المدافن لمدة ساعة أو ساعتين ترقد خلالها إلى جوار جثث من سبقونا إلى اللحود، حتى إذا ما خرجت هلعة مفزوعة بما يكفي تساق على الفور إلى مضاجعة زوجها قبل أن يزال عنها أثر "الخُلعة"، فيحدث الحمل بعدها بإذن الله!

وإن لم تكن شجاعة بما يكفي لأن تقضي وقتا في بطن الجبانة، فيمكن أن تنام في وضع طولي تحت عجلات قطار الصعيد لتتحقق الخلعة!

أما إن كانت ذات بأس وقلب فتي، فإن النساء ينصحنها بالمبيت في ثلاجة مشرحة إحدى المستشفيات العامة!!

ولا تفرغ جعبة الجدة "بخيتة" ومسنات البلد من المزيد من الحلول لمصيبة المشاهرة، فهناك دوما "حد أب سبع" وهو حجر قابع بجوار معبد فرعوني على أطراف القرية التي تعيش فيها الجدة "بخيتة" وتكمن فيه على ما يبدو طاقة سرية ما تجعل العواقر ممن يتقافزن فوقه يحملن!

"البنية العاقر تروح عند حد أب سبع، تترب (تقفز) من عليه سبع مرات، المضاجعة اللي بعديها على طول ربنا يكرمها وتحبل...وكلنا شفنا ورأينا مش خرافات يعني ولا تقولي الجدة بخيتة بتتونس!"

وتتداخل النسوة اللاتي التففن حول حكايات الجدة بخيتة فضولا وطلبا للمسامرة والإيناس، يتداخلن مع الحديث ويتسابقن في ذكر ما ورثن عن الجدات من حيل التصدي لالطاقات الكونية الشريرة وفك المشاهرة، فتقول إحداهن:

"المَرَة اللي ما بتحبلش تستنى اليوم الرابع من دورتها، وبعدين قبل ما تطهر تشق لحم رجلها لامؤاخذة بالموس، لحد ما تجيب الدم، وتجيب زحلفة (سلحفاة) نتاية، وتسيب دمها يسيل على ضهر الزحلفة...لو الزحلفة عاشت يبقى مالهاش حبَل، لو الزحلفة ماتت يبقى حتحبل...أنا عملت كدة لبت خالتي وحبلت...بس لأن الزحلفة ماتت بعد فترة قام الحمل سقط!"

وبخلاف "الزحلفة" فهناك ذبح الديك، والذي تعتبره الجدة بخيتة طريقتها المفضلة لفك مشاهرة النسوة!

"البت المشوهرة يجيبوها ناسها عندي، ليه أنا؟ لأني مَرة كبيرة قطعت الخلف، ما يجوزش تفك المشاهرة بت بنوت ولا مرة لسة بتجيها العايقة (الطمث)، وبعدين آجي دابحة ديك براري يعني ملون وامسكه بيفرفر في إيديا، وتدخل البت عليا أرميه في وشها تتخلع وتجري جري بخلعتها تنوم لامؤاخذة مع راجلها"!

وكإجراء وقائي من المشاهرة تلجأ بعض النسوة لتعليق باذنجانة سوداء على باب غرفة الأم المرضع حتى تحميها من أثر "الدنس الكوني" الذي قد يكون لحق بأذيال الزائرات من المهنئات!

تتعلق المشاهرة إذن ككثير من دراما الصعيد وطقوسه بخصوبة النساء وقدرتهن على الإرضاع، وهي عناصر حياتية أساسية في الصعيد، بل هي محركات الحياة ذاتها وهي محك المعنى الوجودي للمرأة وهي كذلك أحد أهم محددات مكانتها الاجتماعية!

لم لا، ومعبد إدفو بأسوان على سبيل المثال يخلد عند واجهته الرئيسية عملية ولادة حورس من أمه إيزيس ومناظر للإلهة حتحور وهي ترضع الإله حورس...هذه بلاد تولد فيها الآلهة وتُرضع!

الخالة "حَكومة"...المَرَة الرجيلة!

تثير الخالة "حَكومة" (بفتح الحاء كما ينادونها في البلد) أجواء غريبة من حولها، بحضورها المتأرجح بين الأنوثة والذكورة! فالخالة حَكومة امرأة شديدة، متينة البنيان فارعة القامة صوتها لا يخلو من ذكورة، ووجهها المحبب البشوش ممتلئ ببثور وعلامات لا أحد يعلم تاريخها ولا أصلها، ولا أحد يسأل...يكفي أنها هنالك وأنها مرحابة وسخية ولا تكاد تُغلق لها "مُندرة". فهي امرأة ميسورة يتحاكى الناس بسخائها وعزها والأراضي المورّثة لها عن أجدادها والتي تبر منها السائل والمحروم.

لكن أميز ما يميز الخالة "حَكومة هو حبها للضحك والممازحات، خاصة الفاحش منها، وإصرارها على رفع المظالم عن المظاليم! فالخالة "حَكومة ملاذ المظلومات والمحرومات من حولها، تتحلق حولها النسوة المضروبات والجائعات والمحزونات لترفع عنهن ما يعينها الله على رفعه...فهي، كما وصفوها لنا قبل أن نلقاها، امرأة "رجيلة" لا ترضى الباطل ولا تتهاون في النميمة البطالة والخوض في أعراض النساء في مجتمع تنعقد الكثير من مجالسه وتزدهر على هذا النوع من النميمة!

لذا فحكايات البلد ونسوة البلد تصب بأريحية وعن طيب خاطر في حجر الخالة "حَكومة"، إذ تسوق لها النساء شكاويهن و خبر ما يدور خلف أبواب حجراتهن المغلقة طالبات الإنصاف أو العون أو حتى الفضفضة الضاحكة.

والأهم من حكايا النسوة وخبايا البيوت، تُلم الخالة "حَكومة" بطقوس البلاد والعباد من حولها، وحكايات ثأرهم و أشباحهم وتاريخ ما أصابهم من تعاويذ سحرية وكيف انفكت وبيد من!

تبدأ الخالة "حّكومة" حديثها بالصلاة على "**سيدنا الحبيب الهادي قمر الأقمار بدر التمام سيدنا المصطفى وآله وصحبه وسلم**" فتذكرنا بالحكاواتية ذوي الربابات في التراث الشعبي ممن كانوا يبدأون سير الأبطال الشعبيين بالصلاة على الهادي المختار!

ربط الرجال عن نسائهم...تعويذات السحارين لا تنتهى!

"عندينا في الصعيد فيه حاجة لامؤاخذة اسمها الربط...والربط دة يعني يمسكوا العريس بالسحر عشان ما يعرفش يعاشر عروسته..والناس المؤذية مافيش أكتر منيها! "

وتروي الخالة "حّكومة" حكاية إحدى بنات الجيران التي وقعت في هوى ابن عمها الذي عشقها بدوره فظلا يخططان لحياتهما سويا عدة سنوات حالمين آملين كحال العشاق. ولأنه يتيم الأب فقد قصد الفتى الحالم عمه ليخطب فتاته، فلم يتردد العم ولم يجادل في أمر الزيجة، فقط صحب ابن أخيه إلى بيت العروس طالبا يدها:"**الواد رايدها وهي رايداه**" فاستبشر الجميع خيرا بقرب إتمام الزيجة، لولا أن العم ختم كلامه قائلا "**أنا جاي أطلب البت للواد لأنه طلب مني كدة..إنما أنا ماليش غرض في الجيزة دي ولا رايد أناسبكم...واللي تشوفوه اعملوه"!**

وانهار حلم العاشقين الصغيرين، خاصة وأن الأصول والتقاليد والكبرياء الجنوبية حتمت على أهل العروس العاشقة أن يردوا الرد الواحد الوحيد المقبول في مثل هذه المشاهد: "**واحنا ما بنديش بتنا لجدع طالع من طوع ناسه وخارج على كبير ناسه"!**

ظل العاشق الصغير مستمسكا بالأمل في أن يلين أحد الأطراف ويرق لحاله: إما أن يلين له قلب عمه وكبير عائلته، أو أن يميل أبوها متخليا عن التقاليد الموروثة مجازفا بهيبته وسمعته، أو أن تشرد فتاته كغزال فار في دغل، فتهرب معه...ولما لم يجد لينا من أي قلب قرر الفتى أن يسرها في نفسه إلى حين، فكظم قهرته شهورا طويلة حتى علم أن فتاته قد قُسمت لغيره وأن الليلة ليلة زفافها على هذا الغريم الذي خطف منه حلم عمره!

" الواد من قهرته و فحمته (غيظه) راح لسحار خلاه ربط العروسة نفسها، بحيث تحرّم نفسها على عريسها...بقى كل ما العريس يقرب على عروسته يجيها مس وتصرخ وتعمل زي اللي عليها جن...سبع سنين عالحال دة يا بتي...الواد العشّاق سافر السعودية وبقى كل شهر يبعت شهرية للسحار عشان يجدد السحر مع كل دورة قمر...ومافيش سحار تاني في البلد كان عارف يفك السحر، لا مشايخ ولا سحارين ولا قساوسة، غلبوا ناسها يا ولداه ولا انفكش السحر الا لما السحار نفسه مات...غار انقلب في داهية ينتليه بحامي (أي يبتليه بالحُمّى)!"

وبعد أن فرغت الخالة "حَكومة" من حكايتها مرت بعينيها في وجوه النسوة من حولنا فوجدت نهما للمزيد من خبر الربط وسحر السحارين فقالت: **"وفيه حالة تانية أفكرها...بس دي كانت حالة سهلة عاد...عروسة وعريس قضوا شهر العسل والعريس مربوط ومعرفينش مين اللي رابطه ولا يفكوا الربطة ازاي، قاموا راحوا لشيخ دُقرُم قالهم امسحوا عشفكو الجديد كله بالجاز وعوضكو على الله في الجهاز بقى...عملوا كدة فعلا وانفك الربط وحصل المراد والبت دوك عندها عيال ماخبراش ستة كان ولا سبعة!"**

"الورادي" و"السيجعون" ليسا أخوف شبحين في البلاد!

في بلاد لم تدخلها الإنارة إلا متأخرا مع بناء السد العالي، كانت الظلمة تغذي خيال الأطفال وأهاليهم على حد السواء، فيختلط الخيال بشيء يسير من الحقيقة ليصنع عالما متكاملا من الأشباح والكائنات الخرافية التي كانت تنمو وتتحرك مع الظلال التي تحركها إنارة "الشعلولة" (لمبة الجاز)!

من بين هذه الكائنات عرفت الخالة "حّكومة" "الورادي" وهو الكائن الخرافي الذي كان يخطف الأطفال ليفقأ عيونهم ويتغذى عليها! وكان هذا "الورادي" البشع هو الفزاعة التي يستعملها الآباء لتحديد حركة أبنائهم "المشيطنين" كي لا يخرجوا ليلا في الحقول أو يتأخروا بعيدا من بيوت أهاليهم!

أما "السيجعون" فهو أكثر ألفة ولطفا من "الورادي" الذي كان يلتهم العيون، فالسيجعون مختص بالفتيات فقط، ولم يكن من القسوة بحيث يفقأ عيونهن، بل كان يكتفي بالتهام آذان الفتيات اللاتي ترتدين الحلقان!

"دي كانت حكايات بيخوفونا بيها...إنما الحكاية اللي حصلت بجد وكلنا شاهدين عليها حكاية الصول اللي اتدبح على فرسه! قالوا هجامة الجبل دبحوه وقالوا كان تار وخلص فيه...المهم انه كان بعد ما اندبح بيظهر على فرسه كل ليلة في الشارع اللي اندبح فيه، يعدي بين البيوت وفي ايده العصاية البوص بتاعته، ويمر بالعصاية البوص على حديد الشبابيك فنسمع صوت طرقعة

البوص عالحديد ونسمع صوت الفرس فنعرف انه جا! كلنا سمعنا صوته وفيه ناس شافوه، راكب على فرسه وماسك عصايته البوص ورقبته ماعليهاش راس"!

والأشباح من عينة شبح الصول الذبيح هذا لا يمكن الاشتباك معه، فهو روح قلقة ومؤذية والأفضل تجنبها حتى تسكن في برزخها وتفارقنا بسلام!

"ولما كنا نسمع صوت الفرس وطرقعة البوص عالحديد كانوا الأهالي يحبسوا عيالهم في البيت...زي ما كانوا برضهم يقولولنا واحنا صغيرين ما تقعدوش تحت زيرة في الفجرية عشان الملايكة بتاجي تتوضا من الزيرة ولو قعدت في طريقها ياجيك مس!"

<u>كله إلا احتجاب القمر!</u>

وكما هو الحال مع باقي نسوة الصعيد، فهناك ما يخيفهن أكثر من أشباح القتلى وحكايات الجن، وأما ما يخيف الخالة "حَكومة" أكثر من كل الأشباح فهو احتجاب القمر (الخسوف)!

"لما كان يحتجب القمر ويغيب ضيه كنا نقوله "قُماري"...والقُماري دة مصيبة كبيرة...بلا بعيد عنك....لما كان يسود القمر كدة كان البلد كلها بحريمها برجالها بعيالها يطلعوا من البيوت ويغنوا للقمر ويزغرطوا ويطبلوا...لأن القُماري لو ماحدش غناله قال ممكن يغَمْرت علينا (أي يقع على البلد فيُحرقها بالكامل)**!"**

وتحكي الخالة "حَكومة" كيف أن هذا التقليد قد انحسر جزئيا من الصعيد بعد أن بذل أئمة مسجد قريتهم والمساجد في القرى المجاورة جهدهم ليقنعوا الناس بكون الخسوف ظاهرة فلكية لا تستتبع

الهلاك المروع الذي يحسبون، داعين الأهالي لصلاة ركعتي خسوف القمر المذكورتين في السنة النبوية بالتزامن مع الظاهرة.

"لكن العادات الزمانية (القديمة) غير كدة..كان كل ما الغيام يزيد عالقماري نعلي في الزغاريط والغنا..كان رجالة البلد يمشوا بصينية كبيرة ويدقوا عليها بالمعلقة الصاج أو إيد الهون ويمشوا في جماعات كبيرة يغنوا للقمر ويقولوا في صوت واحد:

إحنا عبيدك ياربي

والأمر بإيدك ياربي

افتكروا الله ... ياعباد الله

أما النسوان فكانوا يجيبو الدُهُلـّة (الطبلة) ودي مصنوعة من الفخار ومشدود عليها جلد الغنم، وكنا نحمّي (نسخن) جلد الدهلة على هوج النار، عشان الدق يبقى عالي، وكل ما الجلد يخبخب (يرتخي) نعاود وننقرحها (نسخنها) على هوج النار!"

ويبدو من حديث الخالة "حَكومة" عن ذكرياتها المرتبطة بهذا الطقس، والذي تؤكد أنه كان مزدهرا في بلدها حتى تسعينيات القرن الماضي، أنها كانت أوقاتا عصيبة يملؤها خوف حقيقي من غضب الطبيعة التي قد تهلك الجميع دون إنذار، إهلاكا مروعا بالإحراق الكلي و المفاجئ...حتى إن الأهالي كانوا يسارعون في تبادل التهاني بمجرد زوال ظاهرة الخسوف حامدين الله أن ألهمهم صحيح الصخب والغناء والزغاريد وإلا فإن البديل كان الانمحاء من على وجه الأرض بسقوط القمر على البلد بأكملها!

<u>بدرية...النساء أيضا تثأرن بالدم للدم!</u>

"مين قال إن النسوان هنا مقهورة...والنبي انتو غلابة يا ناس بحري! طب دة فيه هنا نسوان ما أحكيلك كيف أخدوا تارهم لراسك تفر من على اكتافك!"

وتحكي الخالة حّكومة عن "بدرية" التي قُتل ولدها "بدري" في حجرها برصاصة اخترقت حلقه إلى رأسه، على أثر مشادة بين عائلتين بعد أن ادعت امرأة تنتمي إلى إحدى العائلتين أن رجلا من العائلة المقابلة اختلس النظر إليها بينما هي تستحم!

"بدرية لما شافت ولدها ميت فى حجرها اسم الله عليها مخها فوت ، لفت البلد حافيه ولابسه أبيض واتحنت رجلين علي يدين وقالت مفيش غير احمد اصغر ولادي هو اللي هياخد تارك يا بدرى... ومعملتش عزا . سابت البلد وراحت عاشت فى الدبل (الجبل) والبلد هديت كد سنة وقالوا التار اتنسى، وهي المـَرَة لابدة في الدبل بتخطط للتار"

حرضت الأم الثكلى ولدها الأصغر كي يحرك الثأر، فالعام قد مضى وحال حول كامل على الثأر دون أن يُأخذ...فأي عار!

"نزل ولدها من الدبل واتدسى (تخفى) لحد ما خطف واحد من رجالة الناس اللي كتلوا أخوه...لبد له ولف من وراه وفضل يضربه علي راسه لحد ما غِمر (فقد الوعي)، وحطه فى شوال وشاله وراه على عربية كر (عربة بحمار) وسلمه لأمه قال عشان تاخد هي شرف التار!

وما أن رأت بدرية الجسد المسجى أمامها، وإن لم يكن هو قاتل ولدها، حتى همت بفصل رأسه عن جسده ثم ألقت بالرأس في الفرن الحامية!

"وياك سكتت علي كده ؟ أبدا! قامت بالسكينة " نغجلت (قطعت) جسمه كله وبيقووا كمان لفت الجتة فى الشوال وقالت لولدها وولد ولدها: يلا روحوا تاووا الكلب ده فى الدبل"!

مَـثُل الجميع في النهاية أمام القضاء وحُكم على العائلةِ كلها لتقضي بدرية مع ولدها وحفيدها ما شاء الله لهم من السنين في زنازين السجون، لكن من يأبه؟ ألا يكفي أن التاريخ سيشهد لبدرية بأنها أخذت ثأر ولدها دون خذلان!

حكاية السيدة "شمس": لقايا الفراعنة...عز ولعنة!

سألتُ النسوة عمن يحكي لنا حكاية كنوز الفراعنة الدفينة والكنوز الأثرية المخبوء، أو "اللقايا" كما يسمونها في الصعيد، فقالوا لا أحسن حكيا من السيدة "شمس"، التي تنتسب إلى عائلة تتوارث العمل في البازار وتقليد الأنتيكات للسائحين منذ عقود.

لم تكن السيدة "شمس" مرحبة جدا بالحديث إلي، بل على العكس مرتابة قلقة تستعجل إنهاء هذه المقابلة غير المريحة التي وجدت فيها على ما يبدو كشفا لما يراد له الستر.

لكنها حكت ما يكفي دون أن تدري أنه يكفي!

السيدة "شمس" أربعينية سمراء طويلة القامة ذات ملامح قسيمة، تلتزم بالزي الإسلامي المهندم والمحتشم ولها لهجة متأرجحة بين البحري والقبلي. تحكي دون تكثير تفصيل وبشيء من التعثر عن زواجها الذي بدأ بغير حب، والذي أتى بأربعة ثمار بين بنين وبنات.

"جوزي راجل طيب...وكان باله طويل لحد ما حصلت الحادثة المشئومة...ماعادش بيفتكر...بقى بينسى كل حاجة والشوف بقى عالقد...وبقى طول الوقت يزعق ويخانق فينا من غير سبب...لكن لازم اصطبر عليه، لأنه لما كان بصحته قبل الحادثة كان حَنين عليا وعالعيال...دلوقتي أنا أبوهم وأنا أمهم وأنا عائل البيت...بس هو ما زال محتفظ بوظيفته في الحكومة...انما بيدخل إيه؟ ملاليم لامؤاخذة...من وقت الحادثة أنا اللي باعمل مشاريع في البيت وأنا اللي باصرف عالعيال"

لم يكن سهلا على السيدة "شمس" أن تستعيد معي تفاصيل "الحادثة" التي تحكي عنها، وحين سألت صمتت مألومة مترددة في البوح، فتدخلت الآنسة "بسبوسة" ابنة شقيقتها والتي كانت برفقتها كي تكمل الغائب في حديث الخالة.

"جوز خالتي كان شغال في السعودية، وهو قاعد في أمانة الله ساند على حيطة قامت الحيطة اتهدت على راسه! فقد الذاكرة ...يادوب يفتكرنا وينسانا...والنطق والبصر بقوا عالقد...وقالوا في البلد إنه كان قبلها بسنين اتكلم في حق واحد من مشايخ الصوفية الواصلين كلام مايصحش ورماه بالباطل قام ربنا انتقم منه"

هنا تطلب منا السيدة "شمس" بعصبية أن ننهي الحديث عن تلك الواقعة المشئومة طالبة أن نتحدث عن اللقايا، طالما أنها ما نرمي إليه، وما عدا ذلك فأمر قديم غدت تعيش معه كقدر لا فكاك منه دون كثير تفكير!

"حكايات اللقايا في بلادنا ما بتنتهيش، أنا ححكيلك...وبسبوسة كمان حتحكيلك لأنها اتورطت في حكاية شبه كدة من غير ما تدرى"

الأصدقاء السبعة والمراكب الذهبية المقدسة!

تعرف السيدة "شمس" بحكم الجيرة شابا له ستة أصحاب، اجتمع سبعتهم على التنقيب عن كنوز الفراعنة بهدف الإثراء السريع، ودأبوا على فتح قبور الأجداد والنبش فيما تحت المعابد وفي قلب الجبل.

نجح الأصدقاء السبعة في العثور على عدد من المقابر المنسية، لكنها كانت دوما خاوية منهوبة منذ سنين إلا يعلم عدتها إلا الله، فلما يئسوا لجأوا للسحارين القهارين العلامين ببواطن الأرض وكنوزها!

"اتفقوا وركبوا الجبل وقبلوا عالسودان بعد ما عرفوا إن هناك شيخ جريم (مجرم) يعرف يلاقي كُفت الكُفوت! الشيخ بياخد ألافات طبعا دة غير نسبته لما اللقية تنباع، قاموا لموا من بعضهم فلوس، اللي اتداين من ناسه واللي باع شبكة خطيبته واللي رهن أرضه، المهم جمعوا المبلغ وراحو للسحار دة"

وصل الشيخ إلى بقعة صعيدية جبلية قال إنها أرض الكنز الموعود، واشترط قبل أن يستخرج لهم كنزهم شرطين: الأول ألا يفشي أحدهم سره بعد انتهاء العملية، والثاني ألا يرفع أحدهم نظره إلى قمة الجبل في أثناء عملية الحفر، وإلا فإنه يؤذي بذلك نفسه لا غيره!

"الشيخ وقف في المكان وفضل يقرا ويعزم ويحوي وفجأة شاور على نقطة بعينها وقال اكحتوا هنا..أمتار قليلة وتلاقوا منزكم...كحتوا الأرض كحتوا كحتوا لحد ما ابتدت تبان البشاير...وربطوا واحد منهم بحبل ودلوه في قلب الحفرة عشان يتلافى اللقية...الجدع اللي دلوه بالحبل اتهوس وبقى شغال يقول: يا واااحد...يا واااااحد...يا سيدنا النبي!"

في هذه الأثناء كان الشيخ يجلس متربعا مغمضا عينيه بينما يجمع السبعة اللقايا التي ضمت مراكب فرعونية ذهبية من تلك التي كان يقدسها الفراعنة والتي كانت تقل موتاهم في رحلتهم الأخيرة قبل الحساب!

لكن واحدا منهم لم يملك فضوله، وظل مشغولا باشتراط الشيخ ألا يرسل أحدهم نظره إلى قمة الجبل! غلبه الفضول فاسترق النظر في غفلة من الجميع مستغلا انشغالهم بكنزهم المتلألئ!

"كان عاد عايز يعرف إيه فيه! قام بص عالجبل لقى الجبل محاوط داير ما يدور بقرود! بس! قالك الشيخ محاوط الجبل بالجنون (العفاريت) ومسخرهم يحرسونا لحد ما نطلع باللقية! رد بصره تاني وهو مرعوب...انما فرحته غلبت رعبه ورجع بيتهم بيهدرب من الفرحة!"

من بين السبعة احتفظ من استأمنوه بالإجماع، وهو جار السيدة "شمس"، باللقية بالكامل لحين التصرف فيها...ظلت اللقية في خمسة أيام في حوزته، بعد أن أخلى لها "أوضة المسافرين" في بيته ووضع عليها قُفلا غليظا يعصمها من فضول زوجته "الزنانة"!

"كل يوم من الأيام الخمسة كان يفتح الشيكارة اللي فيها اللقية يملي عينه منها ويرجعها تاني ويقفل عليها القفل...إشي مراكب دهب ناعمة (صغيرة) كد الكفة (في حجم الكف) وعرايس فرعوني ملونة كنّها طالعة من تحت ايد صانعها دوك بس...وفي اليوم السادس اتصل الشيخ السوداني وطلب سبعتلاف تاني ...طلب جارنا مهلة لحد ما يصرف اللقية، قام الشيخ السوادني هدده: لو ما جيبتش الفلوس تتحمل عاد اللعنة اللي حتوقع عليكم واحد ورا التاني!"

وتداين السبعة مرة أخرى كي يجمعوا الآلاف السبعة ليصدوا بها عن أنفسهم اللعنة المترصدة لهم من السحار العليم، وذهب أحدهم مرة أخرى إلى لقاء الرجل المخيف في منطقة جبلية بعد حدود مصر مع السودان.

"لما الدنيا هديت بعدها بشهور ورجع جارنا يملي عينه من اللقية ويستعد عشان يتصرف فيها مالقهاش! القفل مكانه ومرته ولا تعلم إيه في الأوضة ولا جات ناحيتها، ودة يدور في سلقط في ملقط مافيش! سأل المرَة وحلف عليها يمين طلاق تحرم عليه زي أمه وأخته لو كانت فتحت القفل، جابت المصحف علي عينيها وحلفت انها ولا تعرف حاجة"!

وأسقط في يد الرجل! عاد أدراجه بمفرده عبر الدروب الجبلية بحثا عن الشيخ السوداني، ودلف إلى "مملكته الجبلية" المخيفة، والتي تبدو كما تصورها أفلام السنما تماما: الشيخ في القلب من المملكة كالحاكم بأمره، والرجال يتسابقون للتخديم على أرجيلته والحرس مدججون بالأسلحة الآلية في كل زاوية متحفزين منتظرين الأمر بتصفية من لا يحسن الأدب في حضرة مولانا!

"الشيخ قاله: مالكمش لقية عندي...أنا اشترطت عليكم شرطين من الأول، لكن واحد فيكم خان الأمانة...فيه واحد فيكم مد عينيه لفوق الجبل واطلع على سري...وهو نفسه راح وحكى...الخاين مالوش عندي لقية ولا له عندي دية...وامشي بدل ما أخلص عليك حالا وأرميك لكلاب الجبل...وأصحابك حلت عليهم لعنتي وعلى ذريتهم من بعدهم!"

خرج الرجل من متاهات الجبل مدحورا مذعورا فارا بعمره! بحث عن باقي الأصدقاء كي يشركهم في مصيبته، فعلم أن كل واحد منهم ملهي في مصيبة ما ، وكأن اللعنة قد أصباتهم بالفعل واحدا تلو الآخر!

"اللي الدين زاد عليه وانحبس، واللي خطيبته فسخت خطوبتها معاه، واللي ضربه لوري عالطريق الصحراوي!"

منتظرا دوره في الإصابة باللعنة، بدأ الشاب الخائف يستقصي عن الخبر ويسأل من سبقوه إلى هذه اللعبة الخطرة، فعرف السر المخفي الذي يتداوله شفاهة العالمون بلعبة اللقايا والسحارين في الصعيد والذي لا يطلع عليه إلا المقربون.

"أتاري السحارين دول بيسخروا جنون بسم الله الرحمن الرحيم، يجيبوا كنز فرعوني في مكان بعينه، تكحتي تلاقي الكنز مكان ما الجن حضر ونقله، وبعد ما ياخد الشيخ غرضه بالألافات، يبعت

الجن يحضرله بالكنز تاني عشان يبقى يندفن ويظهر لناس غيرهم وهكذا! لعبة قديمة أتاريها والمساكين السبعة مكانوش يعلموا!"

<u>اللقايا التى لا تنفتح إلا بالدم!</u>

بعض اللقايا أكثر معاندة من سواها، كما تشرح السيدة "شمس"! فبعضها لا يكشف عن نفسه إلا بالدم...الدماء الطازجة على فتحة المقبرة هي "حُلوان" الجن الذي جنده الفراعنة ليحرس كنوزهم المخبوءة، وهي الترضية الوحيدة لهم كي يسمحوا لنا بالعبث في قبورهم واستخراج ما في باطنها من قطاف ذهبية يانعة.

"في البلد عندينا كان المنادي يلوب (يدور) بين البيوت يقول للأهالي احبسوا عيالكم والا السحارين يخطفوهم ويدبحوهم قربان لحرس اللقايا! وكنا نحبس عيالنا...بعد المغرب ما تلاقيش عيل بيلعب...وأنا أفْكَر من كام سنة عيل من البلد اختفى كام يوم وبعدها لقيناه مدبوح على حفرة من داخلها سلم بيوصل على لقية"

وتسترجع السيدة "شمس" جلسة تحضير الجن التي حضرتها في صباها والتي كانت بطلتها عمتها! فالموروث والمروي عن بيت عائلة "شمس" القائم في مكانه منذ ما يزيد على قرن من الزمان، مبني على كنز فرعوني. لكن أحدا لم يجروء على حر أرضية البيت القديم خشية ان ينهار على ساكنيه، حتى سمعت العائلة بحكاية أحد السحارين ذائع الصيت في هذا الشأن. ووافقت العمة الشابة آنذاك على أن يحضر الجن على جسدها كي ينطق بسر الخبيئة، وكان ذلك بحضور "شمس" التي كانت بعدُ مراهقة آنذاك.

"قرا الشيخ على العمة ورسم على بطن دراعها مثلثات ومربعات كبيرة وصغيرة، فحضر الجن! لما ابتدا الشيخ يتكلم مع الجن لقينا صوت عمتي اتغير وبقى صوت راجل وقال ان الجن طالب دم!

سأل الشيخ: ينفع دم طير؟ الجن قال ينفع بس يكون ديك ملون...وطلب ديل بقرة وتكون لسة "قاطفة" يعني في بداية حملها، أو لسة مجامعة الدكر وماحصلش حمل!"

ثم طلب الجن أن يحرقوا في البيت بخورا ممزوجا بقشر الثوم والقرنفل، فنفذوا ما طلب الجن على لسان العمة حتى ظهرت اللقة في بطن البيت!

"لقينا عرايس فرعوني (تماثيل صغيرة الحجم) من اللي كانت بتندفن مع الفراعنة، والراجل أخد عشرتلاف جنيه ومشي لحال سبيله!"

حكاية "بسبوسة"...العذراء المهداة للجن كي يرضى!

أما "بسبوسة"، ابنة شقيقة السيدة "شمس" التي كانت شريكتنا في جلسة الحكي فكانت لها مع اللقايا والجن حكاية أدهى وأمرّ!

و"بسبوسة" فتاة مراهقة تشبه إلى حد كبير العرائس البلاستيكية التي تلهو بها الصغيرات! فهي نحيلة ذات قد صغير وخصر نحيف دقيقة الملامح و لها عينان وسيعتان مندهشتان في لون اللوز، وبشرة لصفائها ورقتها تخالها تشف عما تحت الجلد!

"بسبوسة" التي لم تلتحق بعد بالمدرسة الثانوية، والتي بعدها في الصف الثاني الإعدادي، مخطوبة منذ ولادتها لابن خالتها الذي يكبرها بعام واحد...أي أنه في السنة الإعدادية!

تروي "بسبوسة" أنها تربت منذ صغرها في كنف أمها وجارتها الحانية التي كانت تناديها "بسبوسة" كما تنادي أمها بـــ"ماما" اعترافا بفضلها ومنتها عليها.

"هي اللي كانت تجيبلي لبس المدرسة ولبس العيد كل سنة، عشان أنا أبويا متوفي وهي كانت بتوقف جنب أمي في ظروفنا الصعبة...الجارة دي جات في يوم وقالتلي يا بت يا "بسبوسة" أنا ضربني البلا وتعبانة واصل، قومي بينا عالشيخ "زعتر" يعزم عليا ويرفع عني البلا اللي ماسك في جتتي...وطلبت مني ما قولش لامي...طاوعتها ورحت معاها"

في مكان الشيخ "زعتر" نظر الرجل مليا لـ "بسبوسة" ثم قال: ابنتنا هي اللي عليها العين والنية! مؤكدا أنها مرصودة رصدا شديدا وأن عليها سحرا عنيدا وأنه تلزم القراءة عليها كي نخلصها مما هي فيه!

بدأ الشيخ "زعتر" في القراءة على الفتاة قراءة مكثفة حتى بدأت الفتاة في الإحساس بالدوار والإجهاد، فطلب منها أن تستلقي قليلا ريثما يتحدث إلى الجارة الطيبة التي تقوم مقام أمها.

"سابوني في أوضة السحار شوية وخرجوا يتوسوسوا برة ...اتلبدت ورا الباب وسمعت السحار بيقول لجارتي: خلاص..طالما البت بدأت تدوخ يبقى قربنا نلاقي باب اللقية...حافضل أقرا عليها لحد ما تشوف ديك أحمر أو راجل بعباية...تبقى هي دي البشرى! بس بعدها ما تسألينيش عالبت! دي حتبقى حلوان الجن...الجن طالب عذراء حايضة...وحتما حياخدها تحت الأرض عشان يدلنا عاللقية! قامت جارتي اللي طول عمري باقولها يا ماما قالت إيه؟! قالت: خدها يا خويا ولا يهمك! اديها للجن تحت الأرض فوق الأرض بس ياك هو يرضى ويدلنا عاللقية! "

كانت صدمة "بسبوسة" أكبر من أي وصف! هكذا ببساطة ودون تردد وهبتها الجارة "الطيبة" قربانا للجن السفلي ليبتلعها إلى عوالمه المخفية والمخيفة في مقابل أن تجد كنزا دفينا ببضعة آلاف!

"أنا سمعت كدة وجسمي سقّع من الرعب! اتجمدت مكاني...خفت أبين اني اتسمعت اللي قالوه أحسن بعدين يدبحوني...فقلت العب عليهم لعبة!"

ظهرت عليهما "بسبوسة" بوجهها البريء طالبة استكمال الجلسة بعد أن فارقها الدوار فعاود الشيخ "زعتر" القراءة عليها بمزيد من الحماسة آملا في أن ينهي الأمر كله في ليلته هذه. بعد مرور وقت من القراءة بدأت "بسبوسة" في افتعال الرؤى والمشاهدات الماورائية!

"بدأت أصرخ في وشهم وأقول بالكدب اني شايفة ديك كبير ومن وراه راجل بعباية وأشاور عالهوا وأقول: مش شايفاه يا ماما؟ مش شايفة الديك؟ فترد والفرحة حتطُق من وشها: لا ياعين أمك...انتي بس اللي تشوفيه عشكان انتي اللي مرصودة! "

وأخذت الفرحة والحماسة الشيخ "زعتر" وأخذه الأمل في قرب الوقوع على اللقية فزاد من سرعة قراءته ورفع صوته وتنغيم قراءاته مرارا حتى صرخت الفتاة مفتعلة الإرهاق الشديد!

"قامت الجارة قالتله كفاية ألا البت تروح فيها!" واتفق ثلاثتهم على العودة في اليوم التالي لإنهاء الجلسة التي كان مأمولا في أن تكون الأخيرة.

"رجعت حكيت لأمي...أمي وقفت على خشم الشارع وفضلت تصرخ عالناس والخلايق يلحقونا وحكت الحكاية بعلو حسها عالرايح واللي جاي! سمعتها خالتي أم خطيبي، ودي مَرَة ما تعرفش الهزار...عاملة زي بتوعات الخضار اللي بتشوفيهم في التلفزيون! قامت الخالة وقفت على خشم شارعنا وبقت تقول: يا بلد مافيهاش راجل البت تتخطف من وسطيكم وقدام عينيكم؟ ودين النبي ما حد ياخد تاري غير مركوبي (حذائي)!"

وانهالت المرأة بمركوبها ضربا على جارة السوء، حتى كادت الجارة التي كان بينها وبين كنزها رمية حجر، أن تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت المركوب ، مستدعية بذلك لمخيلة الرائي والسامع حكاية شجر الدر!

حكايات هائمة في مجالس الصعيد !

الحكايات الواردة هنا هي حكايات منثورة في هواء الصعيد، تعيد استدعاءها النسوة بروايات مختلفة وقد اختلط فيها التاريخ بالواقع بالموروث بالخرافة! وفي جلسة نسائية مفتوحة للثرثرة العامة، كهذه، فإن الحكاية الواحدة مهما بلغت غرابتها وخرافيتها تلقى كل التأكيد على صحتها وحقيقيتها من الراوية كما من الحاضرات بحيث لا تملك في جلسة كهذه وأمام كل هذا اليقين إلا أن تذعن لسلطان الحكاية منصتا موثقا محضر الجلسة دون كثير فذلكة!

سر "البراسى"!

تحكي النسوة (وكذا الرجال) هنا في الصعيد عن الوضعية الروحية الخاصة للبراسي، أي التوائم المتماثلة!

فالبراسي, ومفردها "بَرسي", ليسوا كغيرهم من الأبناء..ولا أم البراسي كغيرها من الأمهات!

"معروف عندينا إن البراسي بيسرحوا! يعني البَرسي من دول روحه بتخرج من جسمه هو ونايم في الليل وتدخل أجسام البسوس (القطط) وتسرح في الشوارع...جسم العيل البَرسي بيفضل راقد في سريره كنّه نايم لكن روحه مش في الجسم ولو صحيتي البَرسي هو وسارح أو غيرتي مكان جسمه روحه متعرفش ترجع تاني ويموت!"

هنا تجزم جميع الحاضرات في مجلس الحكي بحقيقة هذه الظاهرة غير المفهومة، والتي رغم غموضها وعدم وجود سند عقدي أو علمي لها، لم توضع أبدا محل جدل! فالبَرسي يسرح دون شك! وإن كان هناك خلاف على ما يحتسيه البَرسي كي يتوقف عن نشاطه الروحي الخطر هذا! فبينما جزمت إحدى الحاضرات بأن "لبن البعير" هو ما يبطل سرحان الروح، جزمت أخرى بأن "لبن الحمير" هو المخرج المُجرب والآمن!

"أنا ود خيتي بَرسي...كان كل ليلة والتانية يسرح عند جاراتنا من شرق ولا من غرب، يكونوا طابخين سمك ولا لحمة فيسرح عالأكل...كان كل ليلة والتانية يسرح عند جاراتنا من شرق ولا من غرب، يكونوا طابخين سمك ياكل له "مشط" سمك ولا يكونوا طابخين لحم ياخد له حتة ويرمح...وكان يرجعلنا بعد كل سرحة بفخده مجروح ولا بيعرج...ما الخير عالقد والمَرَة اللي حتاجي البسة تاخد عشا عيالها حترمح وراها بالمعصاد (أداة مطبخية مخصصة لصنع العجين)...وكانت خيتي تلف عالجارات تقولهم اللي تلاقي بسة سارحة عنديهم ما تُضرُبهاش ألا دي ولدها البَرسي"!

وعادة ما تمتنع جارات النساء من ذوات البراسي عن ضرب القطط الجوالة في الليل خشية أن تؤذي ابن الجارة!

"أنا مرة ريت (رأيت) بسة في حوش بيتنا في الليل، وعيون البسوس السارحة بتبقى مش كيه باقي البسوس...بتبقى بتضوي! ولما ريته عرفت انه ود الجارة سارح...خفت عليه فزغرت للبس

وقلتله: روح يا واد يا حسن على بيت أمك...خد أهي حتة لحم وماتسرحش تاني...قام واخد بعضه ورمح على دارهم!"

أما والدة البَراسي، فهي امرأة "مبروكة" خضراء اليدين، حين تحلب بقرة فإن لبن البقرة يزيد حين تقضي طلبات من السوق فإن مشترواتها دوما يانعة طازجة طيبة المذاق، والأهم من ذلك أنها بمجرد وضع توأمها فإنها تُوهب على الفور قدرات خاصة تتضمن تجبير الكسور وإعادة المفاصل المخلوعة إلى موضعها الأصلي!

زريعة الغولة!

منشغلون هم أبناء الصعيد بأصولهم وأنسابهم إلى مدى مدهش، خاصة بالنسبة لأبناء المدن من مثيلاتي ممن ذابت أصولهم في زحام المدن الكبرى وفي زخم موجات الهجرات الداخلية ما بين الريف والحضر عبر الأجيال...

لا تكاد تجد من بين أبناء الجنوب من يجهل نسبه القبلي، ونسب أصهاره إلى جدود الجدود، والكل يعرف الغريب ممن لا جذر له في البلاد، والكل يعرف من ينحدر من الحلب (الغجر) الذين لم يعودوا كذلك منذ عقود، كما يعرفون مَنْ مِن بينهم ينتمي بجذوره البعيدة إلى المساليب المحسوبين على القطب الصوفي السيد أحمد البدوي، كما يتناقلون قصة سياحتهم في أرض مصر بلا مُلك ولا جاه، ذلك أنهم من ذرية المريد الذي أغضب شيخه السيد البدوي، فحكم عليه الشيخ بالسياحة في بر مصر حافيا مادا يده بالسؤال تأديبا له، ولما عاد المريد وقد قضى مدة التأديب وجد شيخه قد انتقل

إلى رحمة الله دون أن يصفح عنه فحكم على نفسه أن يكمل حياته في مهانة السياحة والطلب، وورث ذل عصيانه لذريته من بعده!

كذلك فإنهم يعرفون ذرية الغولة! وأبناء الغولة تميزهم النسوة هنا من خلال بنيتهم الجسدية ومشيتهم، وهي حكاية متفق عليها هي الأخرى! وإن كانت حكاية نسل الغيلان هذه تحتكرها عجائز البلاد دون سواهن..فهي حكاية قديمة تكاد ملامحها أن تنطمس!

" جدودنا حكولنا انه في قديم الزمن فيه سبع غولات خيات (أخوات) نزلوا من الجبل وجوا عالوادي وسطينا...الغولات دولي كانوا يشبهونا، بس بياكلوا الميتين! قبل ما ينزلوا وسطينا اتفقوا على كلمة سر بيناتهم، لو واحدة عوت بيها في الليل يتجمعوا عشكان لو فيه ميت دمه لسة سخن يروحوا يفتحوا قبره وياكلوا...ولو حصل انهم اتكشفوا برضهم يتجمعوا بنفس كلمة السر ويفروا عالجبل...كلمة السر دي كانت "سِرتّك"!"

تخفت الغولات السبع وفقا للحكاية الموروثة وسط الأهالي في الوادي وتزوجن وأنجبن، لكن اختفاءهن المتكرر في الليالي التي كان يموت فيها أحد أبناء قراهن والقرى المجاورة كان يثير علامات الاستفهام...وحين كان يسأل كل زوج زوجته عن سر اختفائها تدعي أنها كانت برفقة إحدى أخواتها حتى جاءت ليلة اجتمع أزواج الغولات ليتحادثوا في الأمر ولتنفضح بذلك الحكاية!

تتبع أحد الأزواج زوجته الغولة في إحدى ليالي حتى وقف على مشهدها وقد اجتمعت بأخواتها الست في جبانة القرية تنبشن قبرا لتتغذين على جثة شاب كان توفي قبل ساعات...أصاخ السمع فالتقط صوت زوجته تطلب من أخت لها أن تكسرعنق الجثة: "يلا اكسري عنقه" !

وكانت زوجته هذه وهي كبرى الغولات عادة ما تتدلل على زوجها طالبة منه أن يسقيها بنفسه من القُلة متعللة بأن صوت انسكاب الماء من ثقوب القلة يخيفها "باخاف من صوت القلة..بتعمل بقه بقه!"

عاد الزوج مذعورا إلى بيته بعدما رأى وحين عادت إليه لم يواجهها، لكنه انتظر حتى طلبت منه متدللة كعادتها أن يسقيها من القلة بيده فسألها كاشفا لها عن معرفته بسرها: "بقى خايفة من بقه بقه ومخفتيش من اللي كسرتي عنقه"!

"وهنا عرفت الغولة ان سرها اتكشف فخرجت للخلا وعوت بكلمة السر "سرنّك" واجتمعوا الغيلان وفروا عالجبل وفارقوا الوادي...لكن زريعتهم (ذريتهم) لسة وسطينا...بنعرفهم من مشيتهم...تلاقي المَرة اللي من زريعة الغولة ماشية رامية صدرها لقدام كنّ ليها لامؤاخذة ديل!"

ثم بدأت النسوة المشاركات في الجلسة في استعراض أسماء من يُظن أنهن من نسل الغيلان في قريتهم الجنوبية وفي القرى المجاورة :

"بنت أب سعد من زريعة الغولة...وحميدة اللي بتاجي تصنعلنا (تخبزلنا)...وبنت الحاج وهبة ...ريتيها كيف بتمشي كنّ عندها ديل تحت الجلابية؟! ماهي زريعة الغولة هي كمان!

<u>يعقوب ...جد الحفارين</u>

هذه الحكاية روتها امرأة مسنة عليمة بتغسيل الموتى وتكفينهم، مؤكدة أنها منقولة جيلا على جيل ولا يجروءأحد على التشكيك فيها وهي حكاية يعقوب المِلحّد (الموصل إلى اللحد أي القبر) وكبير الحفارين في الجنوب كما يسمونه، وهو ذلك الرجل الصالح الذي عمل عمره كله يوصل الجثث إلى مثواها الأخير في سلام حافظا أمانتهم غير منبئ عما يتكشف له من أسرار الموتى في قبورهم، والموت أمّ الأمانات!

"يعقوب الحفار كان بيكحت فسقية (قبر) لواحد من الصالحين...بعد ما عطر كفنه ونزل قبله عشكان يتناول الجثة ويريحها، فجأة سمعوه باقي الحفارين بيقول: يا سبحان الله يا سبحان الله...أتاريه لقى "كنج" (مركب كمراكب الفراعنة التي كانت تقل الموتى من الحياة إلى ما بعدها!) بس الكنج الفرعوني دة كانت حافاه الملايكة...ملايكة ماسكة المجاديف عن يمين وعن شمال... كانوا الملايكة جايين ياخدوا الولي الصالح اللي اندفن...قام شافهم يعقوب الحفار لأن الحفار والمغسل مكشوف عنهم الحجاب بين الحياة والموت...فطمع ان الملايكة ياخدوه مع الصالح ...فزعق بعلو حسه وقال: اقفلوا عليا الفسقية وهنيالك يا فاعل الخير والثواب"!

فتهافت الحفارون والواقفون على القبر لإغلاق القبر على يعقوب حيا حاسدين ما انكشف له مما لم ينكشف لسواه، متندرين من جيل إلى جيل بخصوصية عمل الحفار والمغسل ممن ينكشف لهم ما لا ينكشف لسواهم!

وتضيف الراوية التي صاحبت الموتى تغسيلا وتكفينا لسنوات إن الأمانة تقتضي عدم الإفصاح عما يرى المغسل والملحّد من أمر الميت، فقد يرى علامات النورانية والخيرية وقد يرى علامات السخط الإلهي، ويظل الصمت خير ما يلزمه المغسل والملحد على السواء... لذا فهي لم تؤثرنا بإحدى حكاياتها الكثيرة وهي الأمينة على أسرار من غسلتهن وطيبتهن لرحلتهن الأخيرة!

عن الثعبان الوفي والحية الخائنة!

هذه الحكاية تؤكد النسوة اللاتي التقيتهن صحتها، وإن كان نفاها أحد مشايخ الصعيد الأزهريين حين راجعته في أصل الحكاية قائلا إنها لا تعدو أن تكون خرافة...وفي تقديري فإنها تبدو موروثا غير منبت الصلة عن قصة الحية الشهيرة التي غوت أمنا حواء لتغُوي بدورها أبانا آدم فينتهي بهما الأمر طريدين مذمومين. ففيها شيء عن دنس النساء وخبثهن في مقابل سذاجة الرجال ووفائهم!

"دي حكاية الجدة "مهدية" والسُعبان (الثعبان)...الجدة مهدية دي كانت مرة معروفة في بلادنا بقدرتها على الكلام مع الحيوانات والطير والسمك...يعني كانت تكلم السمك في البحر ياجي يتجمع تحت رجليها في المية فتصيده وتحطه حي في حلتها! وكانت مربية سُعبان بشعر...السُعبان ابو شعر دة اللي هو يعني عايش من ميت سنة ميتين سنة وزيادة!"

هذا الثعبان، وفقا للحكاية، كان يحيا في كنف الجدة "مهدية" منذ سنوات طوال رفقة وليفته وكان يخرج في كل عام عدة شهور ليجدد دماءه ثم يعود إلى حيث وليفته...

"في مرة من دولي غاب السُعبان قامت جابت وليفته سُعبان تاني في جحرها! الجدة "مهدية" قالت: واه! يعني ما قدراش تصوني العهد يا واطية خاينة العهد؟ وكتلتها ولوّدتها!"

حين عاد الثعبان ذو الشعر إلى بيت الجدة "مهدية" وجد الوليفة تحوم حول الدار منكسرة باكية، وحين سألها أخبرته بأن الجدة مهدية خانت العهد وطردتها بمجرد غيابه!

"قام من خيبته صدق وليفته! ماهو الراجل الخايب اللي يمشي ورا مرة! وراح بخ سمه في زبدية الجدة "مهدية" عشان ينتقم (الزبدية: إناء فخار يستخدم للحليب)...شافته الجدة من غير ماتوعى للسم، وحكتله: مش وليفتك الخاينة قال جايبة وليف تاني ..قال وعاملاني حاسكتلها!"

وأدرك الثُعبان أنه انخدع بمعسول كلام وليفته وخشي أن تموت "مهدية" بسُمه غدرا فأ لقى بنفسه في الطين ثم عاد وألقى نفسه في زبدية الحليب كي لا تشربه المرأة أبدا!

"وبكدة أنقذ السُعبان الوفي المرة اللي عاش في كنفها، بعد ما كانت الوليفة المُلعب حتفتن بينهم"!

حكاية "ضُحى"... الميلاد والختان...بواكير الحياة!

"ضحى" غير عابئة بتسجيل حكايتها الشخصية حتى على امتلائها بالتفاصيل الجديرة بالحكي والمشاركة، لكنها شغوفة كأكثر ما يكون الشغف بتسجيل وعيها المتقد بطقوس بلادها الغارقة في الطقسية وتقديس الموروث!

لذا قررتْ "ضحى" (ثلاثينية حاصلة على دبلوم التجارة) أن تسهم مع باقي النسوة ممن تحدثن إلينا بالحديث عن طقوس الميلاد والختان التي شَهدتْها مرارا في بيت عائلتها، خاصة وأنها ترى هذه الطقوس آخذة في الخفوت حتى إن "ضُحى" تخشى يوما يأتي فلا يذكر فيه أحد أن الميلاد والختان كانا حدثين من أحداث الحياة الجديرة بشيء من التوقير واقتباس عادات الأسلاف في الصعيد.

"احنا ماعرفناش المشتشفيات غير دوك بس...قبل كدة ماكانتش المَرَة تولد في مشتشفى ولا تروح مشتشفى من أصله...المَرَة تولد في بيتها وسط ناسها...تاجيها الداية زي الخالة "إسناوية" عندينا، تاجي في أول الطلْق تبص عليها وتقول حاجي في المغرب ولا في العشا تكون خلصت التباريح (آلالم المخاض)! وتاجي تاني في الميعاد تولّدها وتقطع الصرار (الحبل السري) وتسبحها (تحممها) وتسبح العيل وتحنن لبن الشطر (الصدر) وتربطلها بطنها عشان الجسم يتقرط زي ما كان قبل الحمل ...كل دة بعشرين جنيه وعشوة حلوة، ولا صابونتين بريحة"!

<u>ثم تبدأ طقوس الترحاب بالوافد الجديد!</u>

ففي اليوم الثاني أو الثالث لميلاد المولود، يُعطى المولود بحذر لأصغر عضو في العائلة، أصغر طفل في البيت قادر على حمل مولود، على أن يملأ الطفل الحامل هذا كفيه الصغيرين بالسكر كي تحلو وتطيب أيام المولود القادمة!

بعدها تملأ أمه إناء نحاسيا كبيرا بالماء الدافئ وتنقع فيه مصاغها وحليها الذهبية قليلا، قبل أن تحمم المولود في الإناء المملوء بالمصاغ!

"يطمسوا العيل في مية الدهب قوم العيل يطلع بخيت (سعيد الحظ) والدهب يجري وراه مش هو اللي يجري ورا الدهب"!

ولا يُلف المولود بعدها في أي من ملابسه الجديدة، بل يُلف في ملابس أو أقمشة قديمة مستعملة، وهو ما يُعتقد في أنه يحميه من الحسد ويُطيل عمره!

ثم يأتي دور تزيين عيني المولود و إجلاء بصره وحفظ عينيه من الميكروبات، وذلك بتمرير إبرة أو "مرواد ألمونيا" مُغطسة في ماء البصل والكحل العربي الحامي بين جفنيه حتى تكتحل العينان وتتألقان بالتماع الدموع الأولى! وإذا لزم في الأيام الأولى تلك قص أظافر المولود فأول مرة لابد أن تقع في ليلة جمعة تبرّكا.

"ولو المولود بت تاجي الداية تخرم ودنها...تحمّي الإبرة عالنار وتخرم ودن البنية وتعلق فيها خيط عشان تفضل مخرومة...ولا كنا نحط براهم (مراهم) ولا شي...الأم تاخد من ريقها وتمسح

الخيط المتعلق في ودن البت وتلف الخيط في خرم الودن يقوم مكان الحرق يطيب! وبعدين ياجي شيخ في المغرب يقرا عالعيل قرآن ويتشاهد ويكبر في ودنه"

وبعد أيام وكي تساعد الأم طفلها على أن تقوى عظامه وتلتئم عظام جمجمته أسرع، فإنها تحضّر الخلطة التي تنصح بها الجدات العليمات بأسرار الحياة وفن الاحتفاء بالوافدين الجدد إليها:

"عشان العيل مخه لسة أخضر، نجيب حنة ومحلب ندقه مع القرنفل والصندل والقرَض (ثمرة شجرة السنط) ونرُبّه (نخفقه) في زيت المحلبية وندلك بيه جسم العيل وراسه...جدودنا عملولنا كدة...انما دوك العيل يتولد وخلاص!"

أما بكاء الطفل المتواصل وارتباك نظام نومه الذي يستنزف الأمهات الصغيرات غير ذوت الخبرة ويقلب ليلهن نهارا، فهذا إشكال محلول لدى نساء الصعيد! فلا أسهل من إلباس المولد ملابسه مخلوفة مقلوبة بحيث يكون الأمامي خلفيا والعكس، فلا يلبث الكائن الصغير أن ينصاع إلى نواميس الكون ويصحو في النهار وينام في الليل كباقي مخلوقات الله!

"وفي الأيام الأولى دي، العيل بيبقى منظور...فلو أمه ناوية تروح مشوار وتسيبه بعيد من عينها شوية لازم تسيبله حاجة تحرسه...فيه نسوان تسيب تحت مخدة العيل سكينة المطبخ الكبيرة، بس تكون حاندة (حامية)...وتستأمنها المَرَة على عيلها، عشان تحميه من الجان والقرينة وخلافه...وفيه نسوان تحط رغيف عيش شمسي بدل السكينة وتطلب من الرغيف يحرس الواد! أنا كنت باحط تحت مخدة بتي مصحف...وربنا هو اللي بيحفظ"

ولا تتعامل النساء في الصعيد مع المرأة "النفَسَة" التي وضعت لتوها تعاملا مستخفا، فالمعتقد والمتداول بينهن شفاهة أن مَلك الموت يظل يحوم حول المرأة النفساء أربعين ليلة! وعليه فإن النساء المحيطات بها يجتهدن بكل طريقة كي يحفظنها من هذا المصير المخيف! فأطايب الطعام تقدم بسخاء للنفساء في ساعات اليوم المختلفة، خاصة ما يعتقد في أنه يدر لبنها كالخس والفروج المحمر في البصل والسمن والحلبة والحلاوة الطحينية والعسل الأسود! كما أنها في الغالب تلزم فراشها بل وغرفتها حتى يمر الشهر الأول من عمر مولودها بسلام...فالنفساء "يدخل **لها الهوا من صباع رجلها**"!

<u>الختان...علقة تفوت ولا حد يموت!</u>

تنتقل "ضُحى" بتلقائية وحماسة من حكاية الميلاد والنفاس، إلى سرد المشاهد المتعلقة في ذاكرتها ووعيها بالـ "طهور" قائلة إن "**العيل المتطاهر بنقوله يا عريس**"!

وتروي "ضُحى" ما شهدته بنفسها من طقوس الختان في قريتها والتي لم تعد محتفظة بنفس الازدهار والزهوة...فقد خبت مع الوقت ولم يعد منها إلا المشاهد المتراكمة في صناديق الذاكرة.

"أول حاجة تتعمل في الطهارة الغيار...العيل لما يبقى خمس ست سنين ياخدوه عالمزين يحلقله شعره ويعمله في راسه ترابيع ترابيع زي السيجا! ويروحوا بالواد على مقام حد من المشايخ الواصلين في البلد ومعاهم حلاوة وفلوس يفرحوا مجاذيب المقام...وهناك في المقام يغيروا للعيل هدومه ويلبسوه تقشيطة (قميص طويل أبيض من القطن أو الشاش) ويزغرطوا النسوان ويقولوا: لبس الغيار لبس الغيار!"

بعد طقس "الغيار" بيومين يأتي دور المزين من جديد، ولكن هذه المرة كي يُتم عملية الختان ذاتها...فيُثبّت المزينُ الفتى على "ماجور" مقلوب، وهو إناء فخار ضخم، وذلك بمعاونة الأهل الذين يمسكون بساقي الفتى وذراعيه لتثبيته في وضعية تسمح للمزين بأداء مهمته **"ويقولوا للعيل بص الطيارة فوق، وساعتها ينحر المزين"!** وذلك قبل أن يدوروا بالفتى وجسده يقطر دما في أرجاء القرية وهم يهللون ويغنون داعين المجاملين إلى "تنقيط" العريس الصغير:

"أووووه خلف الله يا محبين ...يا محبين يا محبين"

وينتهي المشهد في كثير من الأحيان بأن يُعطى الفتى المختون بيضا نيئا كي يلقيه على المارة والمتحلقين حوله وكأنهم يسمحون له بأن ينتقم منهم على الألم الذي سببوه له**!**

وحفظا للفتى المقبل على الختان من الحسد و"العكوسات" والمشاهرة التي قد تقطع ذريته في المستقبل، فإن عجائز العائلة يعلقن له في رقبته حجابا مغلقا على حبة البركة (أو كمون أسود كما تسميه كثير من النسوة في الصعيد). وإمعانا في الحرص من القوى الكونية الغامضة والشريرة فإن عملية الختان لا تتم إلا بعد أن **"يغطس هلال الشهر العربي"**...أي في الأيام الثلاثة الأخيرة من الشهر.

"ولما يطلع الهلال الجديد يطلع عالواد وهو متطاهر وزي الفل! نقوم ناخد العيل و"نشققه" القمر يعني نخليه يبص في الهلال الجديد عشان يبقى عيل بخيت ويجيب ذرية في مستقبله...ونغني ونقول: هل هلالك شهر مبارك"

وتختتم "ضحى"حديثها الباسم بشيء من الجدية الأسيانة ذاكرة أن القدر كما يهبنا الحياة، يضربنا كذلك بالموت، وهما الضدان المتلازمان أبدا...فبعض الصغار يموتون حتى قبل عمر الطهارة، فيسمونه "شافع" لأنه يتشفع في أمه التي أوجع قلبها في مهده.

"في الأيام الزمانية لما العيل الصغير كان يموت يا قلبي يندفن في حوش البيت، ونقول له شافع...عشان يتشفع في أمه وأبوه يوم القيامة...ولما النسوان الكبيرة تروح تعزي ما يقولوش رايحين نعزي فلانة...يقولوا رايحين نشقّع لفلانة...وما يقولوش لامه البقية في حياتك...يقولولها: شافع يا أم الولد...هي مصيبة صحيح، لكن جدودنا قالوا العيل الصغير في موته يجيب خير كبير على ناسه".

ومن الميلاد إلى النفاس إلى الختان وصولا إلى قصة الأطفال الشافعين، أمسكنا مع "ضُحى" طرف الخيط للحكاية التالية...حكاية الموت في الصعيد...التيمة الأقدم حضورا والأثقل في الجنوب...فمنذ أيام الأجداد الذين شيدوا المعابد الجنائزية وإلى يومنا هذا، يظل الموت في الصعيد طقسا لا تنفض قداسته!

طقوس الموت في الصعيد...تركة المصريين القدماء

ومازالت "ضحى" تحكي، وقد أسلمتنا حكايتها عن الميلاد والنفاس إلى الختان ومنها إلى إلى قصة الوليد الذي يلقى ربه في مهده فيُكتب في العُرف الصعيدي "شافع" لأنه يتشفع في أمه يوم الحساب...وهكذا أخذنا حديث "ضحى" إلى حيث قدس الأقداس في الصعيد ومنذ أن كانت أرض مصر صبية تزهو على العالم بحضارتها الأولى...إنه الموت!

فالغالب أن هالة القداسة والطقسية المغالية التي يحيط بها الصعيد موتاه وعزاءاته، والتي حكت عنها "ضحى" بسخاء، هي في شق منها إرث الحضارة المصرية القديمة التي خلقت حول الموت عالما

كاملا ومثيرا وطاغيا في تفصيلاته من الطقوس الزاخرة بالصلوات والمأدبات الجنائزية ونواح النائحات وكل تلك التماثيل الصغيرة المنمنمة لآلهة الموت والحساب والرحمة والتي كانت تلازم الموتى في رحلتهم الأخيرة.

بل إن الوارد في دراسات علم المصريات عن طقوس توديع الزوجة لزوجها المتوفى شابا تحديدا ما يشي بأصل الحزن "المعتق" الذي يتبدى في سلوك الأرامل الشابات في الصعيد إزاء موت أزواجهن!... فقد كانت المصرية القديمة التي تفقد زوجها تودعه وداعا خاصا بأن تُنزل إلى قبره الأشياء الثمينة والتماثيل والمشغولات النفيسة متمنية له أن يمضي وقتا هانئا "في بيته الأبدي" وقد تشبثت بذراعي جثته قبل أن يدفعها الكهنة إلى داخل القبر!

***

يامَرة الشاب يا حالـّة شعرك

عشرة قــَليلة وروحي لأهلك

يامرة الشاب يا حالــّة راسك

عشرة قـَليلة وروحي لناسك

لأروح للحفار مجبورة

انزلي يا عاقلة

دي أعمار مكتوبة

نارك في قلبي لم تبرد

حتى حلا الشاي من بعدك

دُقته علقم في حنكي

(عدودة صعيدية)

***

لا تجيد "ضحى" العــِدّيد، فهذا فن تجيده غالبا من هن أكبر سنا من "ضحى"، أو من تنتمين لبيئة أقل تمسكا بظاهر الشرع...أما بالنسبة لفتاة مثل "ضحى" تنتمي لأسرة متدينة درس بعض أبنائها في جامعة الأزهر، فالعديد طقس جاهلي غير مرحب به...لكن برغم ذلك، تحفظ ذاكرة "ضحى" بعض العدودات التي سمعتها في بعض العزاءات الكثيرة التي تحضرها في قريتها.

سألتُ "ضحى" عما تشهده من طقوس الموت فقالت إن موت البغتة، أي الذي يصيب صغير السن على غير توقع، ليست طقوسه كطقوس من يموتون من العجائز...ولكل حال!

"لو شاب صغير اللي مات بتبقى نار قايدة عاد...النسوان تشق خلقها عالجدع اللي فارق بدري...وفيه نسوان تحل ضفايرها وتتمرضغ في الطين...ويرمحوا في شوارع البلد يوماتي يصرخوا عشان ما يجددوا الحزن...وأهل الميت في الحال دة بيقضوا أيام من غير أكل ولو قلتي

لحد فيهم كـُل يقولك : كَنّ في بطني دبيحة مكتـَفة! يعني مافيش نَفْس للأكل بالمرة... والأصول ان الجيران وولاد القبيلة يودوا ليهم صواني الأكل وهم يكبوا الأكل في الأرض وماياكلوش! وبعد أيام لما ياجي ناس الميت الشاب ياكلوا ، ما ياكلوش لحم...أربعين يوم بيت الميت الشاب ما يتاكلش فيه لحم...ولا يشم الطبيخ ... بس ياكلوا عدَس أو ملوحة أو بادنجان مسلوق...المحمر في الزيت عيبة! "

وإذا كان المُتوفّى الشاب زوجا، فمن المألوف أن تلف زوجته الشابة "الشاش" الذي كان يضعه على كتفه حول خصرها في أيام العزاء كناية عن انكسار ظهرها الذي كان منصلبا بزوجها قبل أن يخطفه الموت، وبعضهن تلبسن جلباب الزوج كأنما تعلن أنها وارت أنوثتها معه الثرى وأنها منذ رحيله نائبه على الأرض تحمل اسمه وأعباءه دون كلل ولا احتياج لرجل سواه.

وإمعانا في الحزن فإن الزوجة الشابة لا ترتدي لسنوات بعد ترملها إلا الخشن من النسيج على جلدها، ومنها ما يسمونه "العَبَك" الأسود...وهناك من ترتدي الملابس المصنوعة من قماش يسمونه "الصيني" وهو بدوره نسيج خشن، وقد تختار منه اللون الكحلي الذي قالت عنه "ضحى" إنه في بعض العائلات يعد لون الحزن الأول حتى قبل السواد!

"المرة بقى الجاحدة في الحزن تلبس على راجلها الصيني...بت عمتي جوزها أكلته عربية لودر وهو شغال في السعودية، البنية حلقت شعر راسها وحرّمت على نفسها ما تدوق الحلو لحد ما تموت، ولبست عليه الصيني وخلعت سروالها الداخلي سنتين! قال ليه ياخَـيـّـتي قالعة سروالك؟ قالت ماتسترش من بعده وهو اللي كان ساترني!! أما الأكتر من كدة بقى الطوفة..."

و"الطوفة" هي الطقس الذي ترتدي فيه زوجة الفقيد الشاب جلبابه والعمة التي كان يلف بها رأسه بعد أن تحل ضفائرها وتخرج إلى الجمع لتتدحرج أمام أعين الجميع في الطين حتى يغطي رأسها ووجهها وجسدها بالكامل...من بعدها تأتي بطبق معدني كبير فتقلبه ليصبح أشبه بدُف ضخم رنّان ثم تبدأ في العديد على رنين الدُفف العالي لتُسمع القرية بأكملها رثاءها زوجها وهي موحولة بالكامل.

"ولحد الأربعين لزام عليها تلبس خلقاتها بالقَلَبة (ملابسها مقلوبة)...والله يا ست لو سمعتي مّرّة بتعدد على جوزها لقلبك يتخلع...حاجة مرار...شي يقبض صدرك ...شي وحيش...مر علقم"

هذا إذا كان المتوفى شابا، أما إذا كان المتوفى مسنا، فلزام على أهل الدار أن يُطعموا الطعام، وأن يوزعوا على الجبانة أكياس المخبوزات المخصصة لهذا الطقس (قُرَص الجبانة) مع بعض ثمار الفاكهة وربما قطع الحلوى!

"وعلى رأي المثل: أبويا مات كلت التمر وامي ماتت كلت الجمر!"

وفي موت العجائز تكون المجاملة بالصراخ! فمن تذهب كي "تواجب" نساء المتوفى المسن، فإن عليها أن تبادر بالصراخ قرب بيت المتوفى على سبيل الجهر بالتضامن والتوكيد على توحدها مع حزن نساء المتوفى!

ولأن موت العجائز لا يحمل نفس قدر الفجيعة، فإن الالتفات لصنوف الطعام المقدم للمعزين يكون عادة أكبر! فتكون الصواني "مكلفة" أي تحتوي الفـتَّت واللحوم والخضارات، كما يشهد "الحصير" (أي خيمة العزاء) قدرا من الحوارات الجانبية الهادئة والمؤانسات الاجتماعية الرصينة على هامش العزاء.

"ويفضل العزا منصوب أربعين يوم للعزايم...وهو دة أصل المثل اللي بيقول: ميتة وخراب ديار!"

وعلى هذا يظل من أغرب ما حكت "ضحى" عن عقيدة الموت في الصعيد، مفهوم "اللوقة" ! واللوقة هي "ضربة قدرية" مخيفة تضرب النساء اللاتي لا يلتزمن باحترام تقاليد الموت!

"يعني لو فيه ميت في البيت الواحدة منينا عيب تتكحل...عيب لامؤاخذة تعاشر راجلها...عيب تغسل هدومها ولا تشغل تلفزيون ولا راديو...ومايصحش لو الميت قريبها تلبس دهب ...لو واحدة استهانت بالعيبة وعملت حاجة من الحاجات دي تاخدها "اللوقة" ...ياجيها نكد مستعجل...تاجيها كهربا تحرق بيتها...ياجيها المرض...تاجيها أي مصيبة عشان ما حترمتش الموت"!

فالموت في الصعيد على ما يبدو أقدس من أن يُستهان بطقوسه، حتى إن القدر يرمي الساخر والمستهين بلعناته المباغتة والمخيفة انتقاما!

وتخلصا من إلحاحي عليها، اختتمت "ضحى" التي على ما بدا لي لا تهوى حكايات الموت كثيرا، حديثها لي بعدودة ثانية ورثتها عن عجائز عائلتها على الأرجح، وفيها ترثي أمٌ ابنها المتوفي كما يُفهم من كلمات العدودة في حداثة عمره:

وجاني اليوم اللي أبكيك يا سيد

عيني يا وليدي

قطعت كبدي عليك يا سيد

سيد يا سيد رد على ميتك يا قليبي

قضا الله وكتابه ساري يا ريته

خدني وياك يا وليدي

فينك يا زين الرجالة من يومك

سلملي عالاحباب يا سيد

بو يا بو بو بو

لاشرب وراك المر والحنضل

قوللي أراضيك فين يا حبيبي

لاجيك جارية على ايدي يا وليدي

شايفاك بتبحي على حجري وتنام

وتصحي على ايدي

فرَحَات الصعيد..حيث تؤخذ البنية بدبايح والسمن سايح!

حديث أفراح الصعيد، أو "فَرَحات" الصعيد كما تسميها النسوة، حديث مختلف عن سواه..فما أن تبدأ إحدى النسوة في الحديث عن طقوس العرس حتى تلتقط منها أخرى خيوط الكلام وتبدأ في غزله مع ذكرياتها الخاصة أو ذكريات جاراتها أو صديقاتها، أو ما توارثته عن جداتها وجدات الجدات من قواعد سارية علي فرحات كبريات العائلات أو صغارها .

هو حديث بهجة لا تسمع فيه صوتا نسائيا واحدا، بل أصوات نسائية متداخلة بالحكي والاسترجاع والضحك والإشارات ذات المغزى الجنسي والأغنيات المخصصة للأعراس ولياليها.

لذا فمحتوى هذه "الحكاية" هو خلاصة جلسة نسائية شاركت فيها عدة نساء بحكيهن المتداخل الذي ملأ هواء الغرفة فرحا وإثارة، كما أنه تتخلله بعض الأهازيج التي تُنشد في المجالس النسائية في أيام الأعراس، جمعتها عشوائيا ممن رضين أن ينشدن في حضوري!

***

ماتسيبه ياجي في هواه

في هواه في هواه

يا رمان الحواشي

أخضر ماستواشي

ياتجوزوني يامقعدشي

وحسيبه ياجي في هواه

في هواه في هواه

ياجريد النخل العالي

طاطاي وارمي السلام

ودقي يا بندقية

لأقفل عيني وأنام

ولاسيبه ياجي في هواه

في هواه في هواه

***

يبدأ الطقس الأول في الزواج من إرسال الفتى طالب القرب "السياق" إلى أهل العروس، أي من يسوقهم لأهل العروس كي "يجسوا النبض" سرا وقبل أي إعلان رسمي عن الاقتران. ويكون "السياق" عادة من نساء عائلة العريس الأكثر تكتما، واللاتي يتمتعن بقبول لدى عائلة العروس .

"العريس في الأول يبعت مَرَة من عيلته تعِسّ... تقول في قعدة حريمي ضيقة إن ولدنا عايز بتكو...لو الدنيا مواتية والجدع مقبول يبعت سياق تاني من كبارات عيلته...والمرة دي بإعلان...يعني السياق التاني لازم أهل العروسة يعملوا عشا ويوزعوا حلاوة وشوجالاطة...وناس العروسة بقى في السياق التاني لازم يتبغددوا...حنفكر...حنشوف...حتى لو عينيهم باظة عالعريس بظان! مش بس كدة...دة ممكن يكون ناس العروسة أصلا عاملين عملات وساحرين للواد عشان يوقعوه من الأول...بس برضو الأصول انهم يتبغددوا عليه...أمال يطلع من عندهم يدور في البلد يقول ما صدقوا لقوا اللي ياخد بتهم؟!!"

وعليه فالرد على السياق الثاني لا يكون في اليوم ذاته كما تقضي أصول البغددة...بل إن الأمر يستغرق عدة أيام يُرسل بعدها أبو العروسة في طلب أحد من شاركوا في السياق الثاني كي يبلغه بالقبول الرسمي! هنا فقط يظهر العريس في المشهد! ويكون ظهوره الأول في يوم قراءة الفاتحة في حشد مكون من عشرات الأشخاص الذين يتم تجميعهم على عربات كبيرة مكشوفة!

***

عند بيت العمدة

دبحوا الدبايح

عند بيت العمدة

والدم سايح

وفرحولي وليدي

ابو عطر فايح

***

في يوم الفاتحة، على العريس فيما يبدو أن يكون مستعدا لأن يواجه أولى التزاماته المادية في هذه "الصفقة" التي تنتهي غالبا بإفلاس العريس! فالزواج في الصعيد، على فقر الإقليم وقلة موارده، مكلف وزاخر بمظاهر الاستعراضية والمباهاة والتعالي، وإلا فإن المصير هو معيارات طويلة الأجل!

والأمر مع قراءة الفاتحة لا يقف عند حد الدبلة والمصاغ، بل إن العريس الذي يحاول جاهدا أن يثبت لأهل فتاته أنه قادر تماما على تعزيز ابنتهم وتجنيبها العوز في مستقبلها المشترك، عليه أن يِّذعن لقائمة "مشتروات الفاتحة" التقليدية، والتي عادة ما تكون محل تندّر ومقارنة في جلسات النساء.

"في الفاتحة العريس ياخد خيته والعروسة وخياتها، وينزلوا يجيبوا الشبكة...ومع الشبكة بقى لازم يجيب التالي...خدي عندك يا حلوة: يجيبلها دستتين هدوم داخلية، وعبايتين سود، وعبايتين استقبال (لاستقبال المهنئين بمنزلها) وبرفان وكريم بريحة وصابون الاستحمام وجزم وشنط على قد مقدرته..وناسه يجيبوا معاهم عالبيت حاجة اسمها "الشيلة" دي بقى قد عشرين كيلو سكر، عشرة كيلو حلاوة الأندلس، وبسكوت بالشوجالاطة، وشوال فول سوداني، وكرتونة صابوت غسيل وصابون بريحة، وشيكارة دقيق ودبيحة...وخضارات لزوم الطبخ، وشوال رز...على أيامنا كان فيه شربات ورد كان ناس العريس ياخدو في إيدهم قزازتين...دوك مابقاش...بقوا ياخدوا

صندوق كاكولا! عشان تعرفي ان فرحاتكو يا ناس مصر دي مش فرحات...واللي ما تجوزتش صعيدي تبقى ماتجوزتش"!!

وفي المقابل، فإن أهل العروس عليهم أن يردوا بما يليق بمكانتهم وقدر ابنتهم! وعادة ما يتمثل رد أهل العروسة على مشتروات الفاتحة و"الشيلة" في إطعام الطعام لأكبر عدد ممكن من ذوي العريس!

"ناس العروسة يردوا بليلة: عشا ودبايح ونواشف وصيجان (جمع صاج) وإدامات (أواني طهو كبيرة)...لازم طير ولحم وحمام ومنشفات زي محشي الكوسة والفلفل والرقاق...يعملوا كميات تكفي مائة نفر...مايتين...وكمان أم العروسة تخبز وتملا حلل محشي مسكر (كحك) ومنين وبسكوت بجوز الهند وبسكوت من غير جوز الهند وأربعين رغيف شمسي! وتبعت كرتونة فايش ولانكشاير وكعك بالبرتكان...والعزومة دي لازم تبقى خلال عشر أيام من الفاتحة والا تبقى جرسة وفضيحة في البلد كلها!!"

هذا بخلاف ما يرسله أبو العروس من شيكارات الدقيق والديوك "الملطية" واسطوانات الجلاش والسمن النباتي والبلدي والتوابل والزيت!

"وطبعا طبعا السكر اللي جابوه ناس العريس 20 كيلو لازم أبو العروسة يرده 40"!

وفي الزيارة الأولى التي تقوم بها عائلة العروس إلى بيت العريس بعد قراءة الفاتحة، والتي تصحب فيها النسوة المخبوزات والمأكولات الكثيرة لرد مشتروات العريس، فإن العروس لا يصح أن تظهر في بيت عريسها في تلك الزيارة...فلازالت أصول البغددة سارية!

"ممكن العروسة تظهر في بيت العريس في تاني زيارة...وفي الزيارة دي لازم أم العريس تهاديها بخاتم دهب كسوة! وهي طالعة من البيت يملو كفوف العروسة والنسوان اللي معاها حلاوة وبسكوت".

***

فايت على دربنا

قال السلام أومال

ياخوي رماك الهوى

ولا رماك المال

ياختي رماني الهوى

على سطح أبوها أنام

فايت على دربنا

عينيه لفوق لفوق

ياخوي رماك الهوى

ولا رماك الشوق

ياختي رماني الهوى

على سطح أبوها لفوق

***

في الحنة، تلتف البنات حول زينة الملاح، العروس، ليشاركن الملائكة في تزيينها لعريسها، كما يُعتقد.

الحلوى والمشروبات والبهجة النسائية المسروقة من الزمان والحنانة النوبية التي تُباهي بمهاراتها وسر خلطاتها التقليدية التي تأتي بها من جنوب الجنوب والذي لا تبوح به لمهما يكن، كلها من عناصر الحنة الصعيدي!

"في الحنة النسوان الكبار يمدوا المدة (يعدوا السُفرة لأعداد كبيرة) إشي خضارات أحمر وأخضر ولحم وخلافه...أما البنات الصغيرين، يمسكوا العروسة بقى..يعملولها حلاوة،و يعملولها حمام طبيعي يشد جلدها: ترمس مطحون وردّة ورز مطحون ونشا في مية مغلية ...يدعكوا جسمها

بالخلطة دي وبعدين يسبحوها بمية الورد,,,الدور اللي بعده يدهنوا جسمها كله بالدلكة السوداني اللي تفضل تفوح من جلدها أسبوعين"

أما عجينة الحنة البلدي التي تُغرس فيها الشموع الملونة فهذه تدور في أيدي النساء من بيت لبيت مع الزغاريد، وبعد أن تنتهي العروس من تحنية كفيها وقدميها وشعرها، فإن العذراوات من قريبات العروس وصديقاتها يتخاطفن كلٌ قطعة من العجين فألا حلوا عليهن وقد تمنت كل واحدة في سريرتها أن تكون العروس التالية!

العريس بدوره له حنته التي يتشبه في خطوطها العريضة حنة العروس، وإن كانت طقوسها أقل حميمية ودفئا من طقوس حنة العروس.

"في النهارية، اللي هو صبح الدخلة، دة بيبقى مولد بقى! ناس العريس يدبحوا عجل، ويحضروا شوايل الرز والفاصوليا البيضا وعلوانتين (قفصين) طماطم ويوزعوا 30 مـِد دقيق على نسوان البلد عشان يصنعوا عيش شمسي تكفي البلد كلها! وبنات البلد يتجمعوا يقلّموا الويكا (البامية) ويخرطوا الملوخية وينقوا شوايل الرز...ويحضروا فطور النهارية لأهل البلد...وفطور النهارية لازم يكون "بياض" يعني مهلبية أو رز بلبن والحون تتوزع عالبيوت حلاوة العرس..وصحن البياض مايصحش يرجع بيت العريس فاضي، لازم يرجع مليان أي حاجة ان شالله حتة صابون بريحة!"

وفي يوم النهارية، لا يرى العريس عروسه أبدا ولا حتى لمحا، وإلا فإنه يكون فألا "وحيشا" وشؤما على الزيجة!

وهذا اليوم بليلته هو ما يُتوّج الأيام التي سبقته والتي تضمنت بدورها ما تضمنت من الطقوس، فقبل الحنة وبالتقاطع معها وبعدها، وإن كان العريس "مقتدرا" فإنه يستأجر فضاءً قرب منزله وبعض

فرق الرقص الشعبي والغناء والكف الأسواني، وهو نوع من الفن الشعبي المتعارف عليه في الصعيد والذي يقوم على تبارز رجلين بالكلام الغزلي على وقع تصفيق كفوف الحاضرين...وقد يكون العريس أكثر مالا فيأتي بكبار المداحين والمقرئين ليتحول فرحه إلى مولد.

ترتدي العروس ثوبها الأبيض وتاجها اللامع وزينة وجهها التي عادة ما تحاكي (وفقا لما شاهدتُ من صور فوتوغرافية) زينة نجمات السينما المصرية في التسعينيات، وتترك شعرها في يدي فتاة "الكاوافير" التي عليها أن تعرّضه لحرارة المكواة الحديدية التي تُسخّن على النار...فتلك الكهربائية لا تناسب الشعور الجنوبية الكيفة والأميل إلى التجعّد.

وإذا كانت العروس ملتزمة بالسير في معية أحد مشايخ الجنوب المتصوفة، وهم كثرُ، فإنها تذهب بثوب زفافها إلى ساحة شيخ طريقتها، لتدور بكامل زينتها حول مقام مؤسس الساحة، ولتشرب من "زيرة الشيخ" التي يقف عليها مريدٌ حارس، حتى لا تختلط مياهه المبروكة التي تعادل مياه زمزم في عيون المريدين، بباقي المياه في الساحة!

"والعريس كمان بيروح ساحة شيخه...يغير ويلبس بدلة الفرح في المقام"

***

وعريسنا من فرحته

ركب السرير بجزمته

وزغرتيله يا خالته

زغرتيله يا عمته

يا اخوانّا صلوا عالنبي

ياعريسنا مين كدك

ماحلى الساعة في يدك

وعريسنا مين شافه

ما احلى البدلة على اكتافه

يا اخوانّا صلوا عالنبي

***

"ناجي بقى للزفة...العربية البيجو السبعة راكب تاخدالعروسة والعريس من الكاوافير أو الساحة وتلف بيهم في جلالة (موكب) ومزيكا وزمّير...بعدها تروح العروسة عالمسرح عشان تستقبل المدعوين وتحصر نقطتها! اللي ينقط بخمسة جنيه..واللي ينقط بعشرة...أنا في فرحي قعدت

واحدة جنبي عالمسرح ومعاها كراسة وقلم، كل اللي ينقط تكتب اسمه والفلوس اللي دفعها عشان نردهاله في أول فرح عاد! كنّها جمعية ودايرة يقبضها اللي عليه الدور في الفرح"

بعدها يبدأ العروسان حياتهما في بيت أهل العريس على الأرجح، لتبدأ طقوس الصباحية التي تكون زاخرة بصواني الحمام المحشو وما شاكله من صنوف الطعام "أسبوعين على أم العريس وأسبوعين على أم العروسة" قبل أن تبدأ العروس في الانخراط في حياتها اليومية كباقي النساء.

***

وعالسرير النايلو

والواد عامل عمايله

وانا مالي يا واد

ماتسيبني في حالي يا واد

وعلى السرير يا واد

شغله تقيل يا واد

وانا مالي يا واد

ماتسيبني في حالي يا واد

جنب الدولاب يا واد

شغله عذاب يا واد

وانا مالي يا واد

ماتسيبني في حالي يا واد

(من أهازيج الفرح الشعبية في الصعيد)

حكاية "مروة": التي رصرصت العين برصاصة!

"مروة"...

ثلاثينة مرحة الحضور، تشعرك بأنها منقطعة عن التركيبة النفسية العامة المميّزة لنساء الصعيد والتي هي أميل إلى التحفظ الممزوج بمسحة شجن!

تجالس مروة النساء المسنات أكثر من سواها من النديدات، لذا فهي تعلم من أمور العلاج التقليدي للأمراض و"قراءات" فك الحسد وخزي العين ما لاتعرفه الكثيرات من بنات جيلها ممن اعتدن التداوي بالأدوية المصنعة كيميائيا.

تفهمُ في ثنايا حديث مروة أن الأفيون كان حتى وقت قريب، وربما لايزال في دوائر معينة، نباتا مألوف التداول لأغراض التداوي، وترى نبات الحنّة الذي يُستخدم في وجه بحري غالبا لأغراض التجميل وقد احتل مكانة علاجية ما في صيدلية الصعيد الطبيعية.

"زمان ما كناش نلجأ لطبيب ولاعرفناش سكة الوحدة الصحية الا دوك...انما مثلا جدتي كانت تقول، اللي كان تـَجيله زنتريا (دوسنتاريا) ولا حُمّى كان يُقرش فص أفيون يقوم زي الفرس!"

والواضحُ أن الصيدلية الصعيدية هي مِزاجٌ من الصيدليتين المصرية القديمة والعربية العريقتين اللتين وصلـَنا ما دُوّن عنهما سواء في لفوف البردي المصرية القديمة أو مخطوطات العرب في

عصور الازدهار الحضاري التي شهدت على تقدمهم في علوم الطب والتداوي، وهما كذلك الصيدليتان اللتان قامتا بصورة أساسية على الأعشاب المختلفة ما بين مجفف ومطحون وبين مَغلي بغرض الشرب أو معجون بالزيوت العطرية والمواد الشحمية ليؤدي أداء الدهان.

تقول مروة:

"أما اتجوزت وأنا عروسة جاتلي زنتاريا ...حماتي خافت عليا، قامت عملتلي كور الحنّة! ودي بقى تاجي ترُكّي الحنّة (تخفقيها) في شوية مية دافية وتعمليها كور صغيرة تتبلع...كورة والتانية تقطع دابر الزنتاريا على طول! ...مش بس كدة...لو فيه نقح في كفة الرجل (القدم) من الجسم التقيل ومجهود اليوم..ولا تاخدي مُسكّن ولا غيره...برضو عليكي وعالحنة...تخلطي الحنة بالقرَض (مستخرج من شجر السنط) وتدقيهم في الهون النحاس مع بُخ مية وترقدي رجلك في الخلطة...وسر وعافية عاد"

ولايقف الأمر عند حد علاج العوارض السطحية التي تمر على أيّ من كان منا بين الحين والآخر، بل إن الأمر يتعداها كذلك إلى علاج الحروق والتهابات الرحم وبعض إصابات فروة الرأس!

" لو لاقدر الله فيه حريق فدة علاجه ساهل ومتجرب...تاجي بت مثلا هب في رجليها الفرن ولا وقعت عليها مية مغلية، ناخدها عالزرع في طلوع الندى...تمرر البنية رجليها المحروقة في النجيل المندي والدِفِرة (نبات شيطاني) وتدهنها بزلال الصُبير (الزلال المستخرج من أرواق الصبار الشائك) ..دور بعد دور يروح أثر الحريق نهائي"

كذلك لا تخلو الصيدلية الصعيدية من علاج لما أسمته مروة بالـ"قوبة" أو "الحَصَفَة"، وهي فيما بدا لي من وصف مروة أقرب ما يكون للثعلبة التي تصيب فروة الرأس فتنتزع عنها بصيلات الشر وتحل محلها بقشرة سميكة، وهذا يُدَاوى بلبن شجر الجميز (المستخرج الأبيض من قلب النبات)،

وما أكثره وأسخاه في الصعيد! حتى البُهاق يُداوى في الصعيد بتدليك الأجزاء المصابة من البشرة بخشب الكوك!

وهناك كذلك أمراض النساء، مثل التهابات الرحم التي أشارت لها مروة بالـ "طراوة في الرحم"...وهذا وإن كان أمرا غير مألوف لكنه لا يستعصي على التداوي العشبي المتوارث في الجنوب، ويتمثل علاجه في عمل "لِبسة" عربي:

"كانت المَرَة لو جاتها التهابات بعد ولادة ولا حاجة، تجيب طبق ألمونيا تسخنه عالنار لما يحمر، وتحط فيها شيح...الشيح اللي بنطرد بيه الحيايي والتعابين...ومع الشيح تخلُط فص توم وحتة بصل وحتة حنة وحتة سكر...الخليط دة يتلف في قماشة صوف وتتحط لامؤاخذة بين الرجلين...تمص كل الرطوبة والالتهابات اللي في المبايض والرحم وكله كله...تنضف الحوض...ولا شفتي ولاريتي".

وأسرّت لي "مروة" بأن هناك طريقة متوارثة ومهموس بها بين النساء تُمكّن الفتيات من استعادة عذريتهن إن وقعت الواقعة! لكنها لم تكن لتبوح بها لي ولا لسواي...أولا لأن هذا حديثٌ خادش للحياء، وثانيا لأنها معرفة غير مرغوبة من الأصل...فالأوْلى بالعذراء أن تحفظ نفسها على أن تستقصي خبر الطب العربي وأسراره!

وللحيوان حظه أيضا!

حكت "مروة" كثيرا وبضحكات طفولية تُسلم بعضها لبعض عن الحيوانات، وكيف أن الأجداد يعلمون أحفادهم لُغاء الطير فلا يشعر الجنوبي، خاصة الريفي، باغتراب بينما يقضي بعض وقته على الأقل متابعا الحيوانات التي هي جزء أصيل من بيئته...

"يعني لما تاجي تسمعي الحمام تلاقيه بيقول: يا قيوووم...ياقيووووم..يعني بيسبح ربه...أما البُرص لما يطقطق بيقول إيه؟ بيقول: طق طق...النبي في الشق! أصل البُرص كائن خسيس حاول يفتن عالنبي مُحمد في الغار! أما الغراب لما ياجي عند بيتك ويكاكي تقوليله كيه؟ تقوليله: بشير مانّك كَشير، لو كان خير لينا وليك، ولو كان شر خده بين جناحيك! والكلب لو عوى يبقى فيه موت...يوم جدتي ما اتوفت الله يرحمها كان الكلب عم يعوي طول اليوم...والقـِمرية بقى (فصيل من اليمام) لو زارت بيتكم تعرفي إن حد جاي من سفر...أصل القمرية طيبة وتاجي تبشر برجوع الغايب وتقول: نضفو بيوتكم والغايب جايكم...الغايب جايكم"!

وهكذا تربت "مروة" على التواصل الخفي مع الحيوان والطير من حولها، حتى إنها لا تشكك لحظة في أن الحوار يدور بينها وبين هذه الكائنات بهذه الطريقة وبحسب ما ورثته من تفسير...بل إنها تستدعي مرات بعينها من تلك التي استعدت فيها لاستقبال أخيها المسافر بعد أن "فتنت عليه" القمرية ونقرت شباك غرفته المغلقة، لتنبهها كيفما اتفق على أن "الغايب جايكم"!

بعد هذه الوصلة من التعاطي مع الطير والحيوان، حدثتني مروة عن شيء من الطب البيطري الطبيعي والموروث، منها تضميد حوافر "الدحش" (الجحش) أو الحصان إذا آلمه المشي الطويل أو قسوة الأرض مع الحمل الثقيل، والمعتاد هنا أن يتم طهو شيء من الحنة (التي يبدو أنها لا تخيب مع أي مرض إن كان...على الأقل في الصعيد!) ثم تُلف أقدام الحيوان بالصوف حتى يبرأ...أما إذا

كانت البهيمة "معضومة" أي أن شيئا ما يقف في حلقها، فإن المتبع أن تضع المرأة خرطوم ماء في حلق البهيمة وتبدأ في تمرير يدها على اللسان الرطب مع وضع قطع السكر في الفم، وهكذا حتى تلفظ البهيمة الجسم الغريب!

"بس الواحد كمان لازم يبقى واعي...واحد جارنا عتر في نسر جريح...كان نسر ضخم وعجوز، ومن النوع اللي ما بنشوفوش هنا في بلادنا...المهم أخده طببه وعالجه بالأعشاب ...بس غلط غلطة عمره، لأنه كان بيوكل النسر من الخشم للخشم! النسر صحي (شفي) والراجل مات!"

العروسة الورقية المحروقة...علاج الحسد الذي لا يخيب!

ويظل المستوى الأعمق من العلاج الشعبي هو ذاك الذي لايغيب عنه الشق الميتافيزيقي!

والحسدُ وقدرته على إفساد حياة المحسود من أقوى موضوعات التندّر في الجنوب، فهذا حاسدٌ لدرجة أنه ما أن يطأ بقدمه منزلا حتى يُحيل كل اللبن الموجود في البيت إلى جبن قديم! وتلك ما أن ترى امرأة تحمل طيرا مذبوحا استعدادا لطهوه حتى يدب النمل الأسود في داخل الطير المذبوح من حيث لا يُعلم أين ولا كيف!

والنساء في الصعيد، حتى من تلجأن للطب والمستحدث من الدواء، لا تقوى على أن تُنكر التداوي بالقراءات واستدعاء القوى الغيبية التي لاتجد بالضرورة سندا شرعيا لها، بل موروثٌ موجود وقديم لا يكاد يسمح بتتبع أثره!

تماما كطقس إحراق العروسة الورقية بعد خلق ثقوب كثيرة في رأسها وجسدها بالإبرة، بحيث تكون كل وخزة إبرة مقابلا لاسم حاسد محتمل!

طقسٌ ذكرني إذ رأيتُه بطقوس سحر الفودو الذين قرأتُ عنهم في مراهقتي!

وحين اقترحتْ "مروة" عليّ أن تُحرق لأجلي عروسة ورقية كي تدفع عني عين الحاسد، لم أستطع إلا أن أمتثل للطقس بهدوء وأنا يملأني شغف وفضول طفوليين!

سألتني مروة عن اسم أمي ثم طوت ورقة متوسطة الحجم فقصتها على هيئة أولية لإنسان ثم بدأت في وخزها بإبرة خياطة دقيقة متمتمة بما أسمته "حزب الحسد":

"الله أكبر الله أكبر

من عين الحاسدين اللي يحسدوكي

من عين أمك من عين أبوكي

عين الراجل فيها مناجل

عين المرة فيها ثرى

رصرصنا العين برصاص

ورميناه في البحر الغطاس

لا ليه جثّة ولا راس

بعزمة الله القوية...بعزمة الله القوية...بعزمة الله القوية.

يارب تكون معايا ما تكون عليا"

قبل أن تطلب مني المرور سبع مرات من فوق طبق نحاسي مملوء بالملح، ومع قفزتي السابعة من فوق الطبق النُحاسي أحرقت مروة العروسة الورقية وألقتها في الطبق النحاسي فوق الملح...وحين أصدر الملح طقطقة الاحتراق عرفتُ من "مروة" أن هذه علامة الوقوع في مرمى عين حاسدة شديدة، وأنه "الحمد لله اني اتلحقت"!

حكاية راسي: عن الصبية والولي

في الصعيد ، تحكي النساء عن النساء كثيرا...يحكين عن جمال بعضهن الخفي، عن دلال المتدللات منهن وعن ذوات الأصوات الخشنة من المُسترجلات..يحكين عن التعيسات والسعيدات والكادحات والمنتظرات والهاربات. لكن الأكثر إدهاشا من حكايات النساء عن النساء في الصعيد، حكايات الرجال عن النساء!

فرجال الصعيد قد تربَوا على فيض من الحكايات، ربما لا يجيدون نقلها بالحبكة المطلوبة، ولا بذات التفصيل المثير الذي تجيده النسوة، لكنهم حين ينكسرون للحكاية، وحين يقررون ألا يخجلوا من الإخبار، يقتربون من براءة الحكاية أكثر من النساء، لأنهم إذ يحكون يستعيدون معها أطفالا مختبئين منذ عقود في جلابيبهم الفضفاضة وخلف شواربهم المهندمة.

والأم دوما حاضرة في حكاية الصعيدي، وإن أفسحت المكان قليلا فلن تفسحه إلا للجدة أو الحبيبة..المهم أن امرأة ما مميزة ستكون دوما في فضفضات الصعيدي.

هذه الحكاية،حكاية الصبية "رقية" والولي "أبو طبق بنور"، استثناء من بين حكايات هذا الكتاب، لذا فقد احتفظت بها لختام الحكايات...وليست استثنائية الحكاية نابعة من محتوى الحكاية نفسها، لكن من أن من حكاها كان شابا صعيديا من القليلين الذين اختاروا أن يجالسوني ويحكوا لي، ولأنه، "راسي" الراوي، حكاها بتلقائية وتدفق دون تردد ولا خجل عن "رقية" جدته...وبتفصيل يندر أن يروي به رجلٌ حكاية..على الأقل في خبرتي!

***

حكى لي "راسي" الشاب الصعيدي النحيل عن جدته "رقية" أم أبيه التي وافتها المنية بعد أن زاد عمرها على المائة بخمس..عاشت الجدة رقية الـ 105 سنة المقدرة لها في كامل الصحة والبهاء، شُجاعة قوية حاملة كتاب الله..وفي السنة الخامسة بعد المائة، أتاها الخبر بوفاة ابنها (والد راسي) فصامت بعدها عن العِدّيد والصراخ بل والكلام حتى لمدة أربعة أشهر كاملة، ثم ماتت على صمتها.

يذكر "راسي" كيف كان ينام في حِجر هذه الجدة متدللا عليها متوسلا كي تحكي له "حكيوة" فتمنحه المرأة ذات العمر المديد حكايات لا تنتهي .. هذا فقط إن كانت راضية عنه! أما في غير رضاها فلا حكاياتٌ ولا نومٌ في الحجر الحاني ولا سقاية بيدها من "الزيرة".

أما حكاية "راسي" المفضلة من بين حكايات جدته، والتي حكاها لي بوجه باسم سَمتُه الرضا، فقد كانت حكاية " الولي أبو طبق بَنّور " والتي كانت تحكيها الجدة كما هي في كل مرة بلا زيادة ولا نقصان، مُقسمة أنها حقيقية وأنها جديرة بأذني الحفيد المدلل، فقط لو يُصلّي على مُحمّد ويقول "عليه الصلاةُ والسلام يا "أم الرقاقي"، وهو اسم التدليل الذي كانت تحبه لاسمها "رقية ".

" بص يا وليدي، زمان قبل ما ناجي البيت الشرقي ده كنا قاعدين في البيت الغربي ، أنا وجدك وأبوك وأعمامك وعماتك ،و كان في بركة والرزق واسع والخير كتير ، أبوك ده من صغره وهو بيحب يصيد السمك ويحب الزرع ، بعد الفجر يصحي يحلب الجاموسة و يصحيني أعمل البتاو باللبن لحد ما يحلب الأصيلة ..كانت يده فيها البركة اليوم اللي ينزل فيه يملا البيت سمك ولبن وبلح"

هذا عن الصباحات الاعتيادية طوال الأسبوع، كما حكت الجدة، أما فجر الخميس، فله شأن آخر.. فقبل فجر الخميس، تصحو أسطورة الولي أبو طبق بنّو، الذي كانت "راكباه نورا"، أي كان نور الصلاح والولاية على وجهه!

في كل خميس، تسمع القرية كلها "طق الطار" مع أصوات الرجال تردد "الله حي..الله حي" ثم يُطلق البَخور من مكان خفي ليتسلل إلى طرقات القرية وبيوتها فيكون ذاك هو إعلان بدء حضرة الولي "أبو طبق بنور".. في الحضرة يجتمع أربعون من الأولياء وأهل الله، يتباحثون شئون العباد ويفكون الكرب ويمنحون السائل.. لكن إن جسر أحد على النظر في وجه أبو طبق بنور أطول من اللازم، فإن النور سيغشاه حتى يفقد عقله إلى الأبد!

ولأن الجدة "رقية" كان صبية شجاعة، كما روى لي "راسي"، فإنها قررت ذات خميس أسطوري من تلك الخمسان وبرغم تحذير أبيها أن تختلس النظر من وراء شباك غرفتها كي تنظر في وجه أبو طبق بنور.

"سيبني أنظره يا أبويا...يمكن ينفحني نفحة وأحبل ولا أزور فاطنة بنت النبي"!

ونظرتْ رقية فرأت الولي الأسطورة يرتدي البياض ويعتلي فرسه الأبيض وعلى وجهه بهاء لا تصفه الكلمات ولا تسعه اللغة، ففقدت وعيها مبهورة الأنفاس بعد أن سمعت صوتا يردد في أذنيها **"خلاص يا أم إبراهيم"**.

ولم يفت شهران، بحسب حكاية "راسي" نقلا عن الجدة، حتى كانت" رُقية" حاملا في إبراهيم...إنه حمل النفحة!

لكن صوت "راسي" يتغير مع نهاية الحكاية التي بدأت حالمة لكنها لم تنته كذلك:

"لكن عمي ابراهيم مات بعد الفطام...اللي بشّر بيه أخده...هو حر عاد..لكن البلد كلها فضلت تنادي جدتي يا أم ابراهيم لحد ما ماتت..ولحد اليوم جدتي اسمها في سيرتها على لسان البلد أم ابراهيم!"

تماما كما تحكي قرية "راسي" الصعيدية إلى اليوم حكاية الولي أبو طبق بنور! رحم الله الصبية والولي!

خاتمة

انتهى ما جمعتُ من حكايات لهذا الكتاب، لكن شغفي بحكايات صعيد مصر لم ينته بعد، كما أني لم أصل لنقطة التشبّع أو ارتواء الفضول والرغبة في المعرفة. لكن ما يشغلني أكثر من فضولي هنا هو، وأكرر، خشيتي على فقد هذا الموروث الذي يُعد فهمه والإلمام به توثيقا لتراث قطاع هام وأصيل من وجدان الوطن، ناهيك عن كونه مفتاحا لفهم الطبقات الأعمق من وعي أبناء الصعيد الذي يظل مجتمعا مغلقا على نفسه عازفا عن التواصل مع خارجه، وهذا الفهم قد يكون خطوة على طريق التنوير وإحداث تغيير اجتماعي وثقافي حقيقي وعميق في ذاك الإقليم القديم الذي تجري عليه التغيرات ببطء ملحوظ كأنما يسط خارج حسابات الزمن!

أعتبر أن تجربتي في الصعيد وحديثي إلى هؤلاء النسوة الوارد ذكرهن في الكتاب أو غيرهن ممن رفضن توثيق حكاياتهن، أعتقد أنها من أغنى تجاربي الذهنية والعملية وكذلك الشخصية، وأعتقد أنها استرقتني من نفسي ومن وعيي وزمني وألقت بي حقا في عالم لم أكن أعلمُ حتى بوجوده.

وعلى الرغم من مقدار الشجن ومظاهر القهر والمعاناة التي تطل بارزة متحدية برأسها من خلال الحكايات المجموعة في هذا الكتاب، لكني لا أتسرع بالوصول لنتيجة مفادها أن المرأة الصعيدية تعيسة، أو مقهورة أو عديمة الحيلة...بل إنها في خبرتي كانت في الحقيقة تُعايش ظروفا ومعطيات ثقافية واجتماعية واقتصادية دقيقة ومتصلبة وضاغطة، وبرغم هذا لم تنكسر لهذا المشهد المستنزف والمستهلك، بل صمدت في سعيها لتغيير دفة الحياة لنفسها ولعائلتها بقدر ما تتيح الظروف وسقف المسموح، وأجادت المواءمات والتفاوض مع شركائها في الحياة كي تحقق ما رأته أهدافها الأهم.

كما أن المجتمعات النسائية المرتجلة في قرى الصعيد، تلك التي ألقى عليها الضوءَ هذا الكتاب الذي قامت بعض أجزائه على حكايات مجمعة من مجالس نسائية تلقائية ومرتجلة، تلك المجتمعات الصغيرة المغلقة على نسائها تتسم بقدر كبير من التماسك والتضامن بين عضواته، حتى وإن شابت العلاقات بينهن الغيرة أوبعض الكيد وسواه من طبائع النفوس، فإنهن محكومات في النهاية بعهد غير منطوق يجعلهن ظهيرات لبعضهن البعض في الشدائد، ويخلق لهم براحا للمؤانسات والفضفضة والبوح والاستقواء بالضحك والطعام (وربما التدخين خلسة كما شهدت) على صعوبات قد تُضطر ابنة المدينة بدورها لملاقاتها ولكن على الأرجح وحدها أو بعون محدود من عائلتها.

وأعود للحكايات، التي ما زلتُ أعتقد أني أفتقد الكثير مما لم يرد بها، فلا تزال هناك مساحة كبيرة للحكي مثلا عن "الرفاعية" الذي يحوون الأطفال في الصعيد كي يحموهم من الدبيب والثعابين ولدغات الأفاعي بتلاوة "قسم الرفاعية" على المحوي، وهناك مساحة لمزيد من الحكي عن المساليب والغجر، وعن الموالد وما تشهد من آمال مُعلقة على أسماء أصحابها من الأولياء أو نذور أو بهجات طفولية صغيرة تنطلق مع الطعام والمراجيح، وكذلك عن الخريطة القبلية في الصعيد، عن المدارس والتعليم، عن فرص العمل، عن ساسحات المشايخ وعلاقات أبناء الطرق ببعضهم البعض، عن القطن وزراعته والقصب ومواسم جمعه، عن الأديرة الصعيدية وما عليه راهبات الصعيد ورهبانه، وعن كل الذين هجروا الصعيد بفقره وأساطيره وقبائله وقرروا ألا يعودوا لأنهم اكتشوفا أن هنالك عالما آخر وراء هذا الإقليم الضيق يستحق أن يُستكشف! وعن كل القاهريات والسكندريات اللاتي قررن أن يعشن في كنف رجل صعيدي في قلب الصعيد إلى الأبد...

الفيضان وما تبقى من ذكرياته في رؤوس العجائز، والتليفزيون وما فعله برؤوس المراهقين، والأطفال وكيف يلعبون، والمخبوزات المختلفة وكيف تُصنع وفي أي مناسبة يُصنع أيّها دون سواه...

مجالس المصالحات الثأرية وكيف تُدار، علاقات المسلمين بالأقباط وأين ينصلب عودها ومتى يرتعش بنيانها وتتوتر...

كل هذه حكايات مُحتملة من الصعيد وعن الصعيد، والمسكوت عنه لا يزال أكثر مما رُوي...لذا فأنا أعتبر هذا الكتاب بمثابة دعوة (مطوّلة) لاستفزاز المزيد من حكايات الجنوب ومن بوح نسائه...فالحكاية مؤنثة والتفصيلات مؤنثة والموروثات مؤنثة والخرافات مؤنثة، ولا يملك مفاتيح بوابات الصعيد العملاقة إلا نساء الصعيد.

سلمى أنور

القاهرة- صيف 2016